منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (3400) السنة الثانية عشرة - الأربعاء (1) تمـوز 2015

WWW. almadasupplements.com

عبدالرحمن الكواكبي

عبدالرحمن الكواكبي

اعداد/ منارات

عمله الصحفي

ولد الكواكبي في حلب (١٨٥٥) لأسرة عربية، تمتد جذورها إلى الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) من جهة الوالدين. توفيت والدته عفيفة آل النقيب وعمره ست سنوات، فكفلته خالته صفية واصطحبته إلى بيتها في أنطا كية، حيث بقي هناك ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى حلب، ليتعلم فيها على يد الشيخ"طاهر الكلزي"وبعد أن تعلم القراءة والكتابة، وأتم قراءة القرآن وحفظه، عاد إلى خالته، كي ترعى تنمية علومه، فاستعانت بقريبها"نجيب النقيب"(أصبح فيما بعد أستاذاً للخديوي عباس الذي كان على عرش مصر حين لجأ إليها الكواكبي).

وحين أتمّ تعليمه هناك، عاد إلى حلب ليتابعه بالعربية والفارسية، بعد أن أتقن التركية في أنطاكية، فدرس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة في المدرسة الكواكبية، التي كانت تتبع مناهج الأزهر في الدراسة، وكان يشرف عليها ويدرّس فيها والده مع نفر من كبار العلماء.

لم يكتفِ ألكواكبي بالمعلومات المدرسية، فقد اتسعت آفاقه أيضًا بالاطلاع على كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي مخطوطات قديمة وحديثة، ومطبوعات أول عهد الطباعة، فاستطاع أن يطلع على علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة...الخ. لاشك أن هذه الثقافة المنفتحة التي تمتع بها الكواكبي بالإضافة إلى التربية الإسلامية منحته شخصية متميزة.

بدأ حياته بالكتابة إلى الصحافة، ويرجح حفيده (سعد زغلول الكواكبي) أن جده عمل في صحيفة"الفرات"الرسمية سنتين لا أكثر، وقد ترك العمل فيها نظرا لمعاناته (الرقابة، الاضطهاد لكونه لا يمدح السلطة...).

وقد أحس أن العمل في صحيفة رسمية يعرقل طموحه في تنوير العامة وتزويدها بالأخبار الصحيحة، لذلك رأى أن يُنشئ صحيفة خاصة لاعتقاده أنه يستطيع الكتابة فيها بحرية أكبر من الصحيفة الرسمية للدولة، فأصدر صحيفة"الشهباء"(عام ١٨٧٧) باسم صديق له (هاشم العطار) كي يفوز بموافقة السلطة العثمانية، لأنه لو طلب الترخيص باسمه لما فاز به، وكان عمره آنئذ نحو اثنين وعشرين عاما! لم تستمر هذه الصحيفة طويلا، عطلت ثلاث مرات قبل أن تغلق بشكل نهائي بعد صدور العدد السادس عشر، إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد، فالحكومة كما يقول الكواكبي نفسه"تخاف من القلم خوفها من النار".

تابع جهاده الصحفي فأصدر (عام ١٨٧٩) باسم صديق آخر جريدة الـ"اعتدال"سار فيها على نهج"الشهباء"فعطلتها السلطة، فتابع الكتابة في صحف عربية تصدر في بلدان عربية وغربية ("النخلة"بنسختيها العربية والإنكليزية، و"الجنان"و"ثمرات الفنون"و"الجوائب"و"القاهرة"و"والمؤيد"..) كان قلمه نصير الحق، يقف إلى جانب المظلوم بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي، لذلك وجدناه يشرّع قلمه في وجه المستبد، فينقد تصرفاته وتهاونه تجاه مواطنيه، فكتب مقالا ينتقد فيه عدم قبول بعض المسيحيين في الجيش العثماني إلا بعد اشتراط تغيير أسمائهم بأسماء إسلامية!!.

المهن التي زاولها الكواكبي

بعد أن تعطّلت صحيفتاه، انكبّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعيّن عضوا في لجنتي المالية والمعارف العمومية، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضوا فخريا في لجنة امتحان المحامين، وفي سنة ١٨٨٦ صار مأمو لإجراء. وبعد أن أحس أن السلطة تقف في وجه طموحاته، وتعرقل مشاريعه، بل وصل الأمر بها إلى عزله وقطع رزقه، لذلك انصرف إلى العمل بعيدا عنها، فاتخذ مكتبا للمحاماة في حي (الفرافرة) قريبا من بيته وسراي الحكومة يستقبل فيه المظلومين من سائر الفئات وسائر أنواع الظلم، فيسعى إلى تحصيل حقوقهم ورفع ظلاماتهم بكتابة الشكاوي وإرشادهم إلى طرق الاحتجاج القانوني، وقد كان يؤدي عمله، في معظم الأحيان، من دون أي مقابل مادي، حتى اشتهر بلقب (أبي الضعفاء).

ولكن إلى جانب هذا العمل الخاص نجد الكواكبي قد شغل مناصب عامة كثيرة، دون أن تفلح الدولة في جعله تابعا لها، أو تغيير منهجه في نصرة الحق وخدمة المصالح العامة، لذلك سيواجه المتاعب في كل أعماله، وسيجاربه كل المستفيدين من الفساد والتسيّب، فحين عين رئيسا لبلدية حلب (في زمن الوالي الذي كان مقدرا لمواهبه عثمان باشا ١٨٩٣) قام بمشاريع عمرانية، كما حاول الحفاظ على سوق المدينة الأثري، فأقام أعمدة حديدية تحول دون دخول الجمال إلى السوق التي كانت تصدم المارة وتملؤه أوساخاً، درس مشروع سد الفرات، وتجفيف مستنقعات الروح، وكلف بعض المهندسين باستثمار (حمامات الشيخ عيسى) بعد تجميلها وترميمها، وقد كانت المكافأة التي تلقاه الكواكبي على إصلاحاته هي العزل، فقد ضجّ التجار الذين منعت دوابهم من دخول السوق، ولم يكتف الوالي بعزله، بل غُرّم قيمة الأعمدة الحديدية، وفروق رواتب موظفي البلدية التي زادها لهم قطعا لدابر الرشوة!

ثم تسنم رئاسة المصرف الزراعي، ورئاسة غرفة التجارة في حلب، فأسس شركة للتبغ بالتعاون مع تجار حلب، كي يخفف الضغط على الفلاحين، بالإضافة إلى قيامه بإصلاحات أخرى تضرر منها أصحاب السلطة، الذين كانوا يشاركون المهربين في تهريب التبغ، فأحرقوا مواسم الفلاحين من هذا المحصول، فاضطر الكواكبي إلى حل الشركة ودفع قيمة الأسهم المستحقة من جيبه الخاص! في عام (١٨٩٤) تسنم وكالة المحكمة الشرعية بحلب، فاستطاع أن ينظّم ديوان المحكمة، ويحارب شهود الزور الذين يجلسون أمام المحكمة على المصطبة متظاهرين بالتدين (كانوا يدعون بشهود المصطبة) فحاربه هؤلاء وغيرهم من الفاسدين حتى عُزل.

بعد ذلك عين رئيسا للجنة بيع حق الانتفاع من الأراضي الأميرية (التي أصدر السلطان أمرا بتملكها هو وورثته) فبدأ الكواكبي يوزعها على الفقراء ويحجبها عن المتسلطين من رجال الدولة، لذلك عملوا على الإسراع بإقالته!

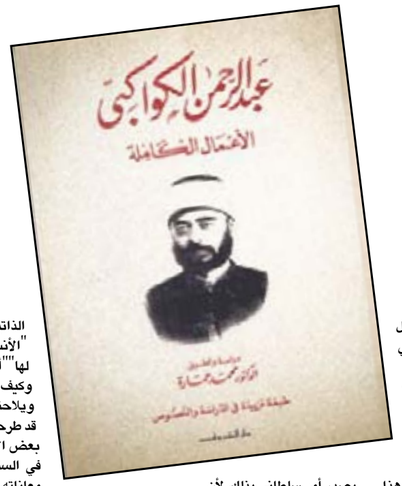

يصدر أمر سلطاني بذلك، لأن النقابة تكون في الأكبر سناً من أفراد الأسرة المؤهل علميا واجتماعيا. اعترض على تزوير نسب الصيادي لآل البيت، بل نجده يحرج أبا الهدى الصيادي أمام جمع من الناس أتوا لتهنئته بمناسبة خروجه من السجن، حين قال له"الحمد لله على السلامة يا بن العم"فردّ عليه أمام الناس جميعا"وعليك السلام لكن ابن العم هذه من أين أتيت بها؟"قاطعا عليه طريق الاعتراف بنسبه إلى آل البيت، مبطلا ادعاءه أمام الناس جميعا.

ومن المعروف أن النسب إلى آل البيت يحتاج إلى تصديق ممن يعدّون أنفسهم بمثلونه، وقد كان عبدالرحمن بمثلهم خير تمثيل، لهذا كان إحراجه للصيادي كبيرا، سيرّده له أذى مضاعفا. لم تكن ثورة الكواكبي على الصيادي بسبب اغتصابه نقابة الأشراف فقط، وإنما كانت بسبب أعماله وظلمه للرعايا، فقد استغل تأثيره الكبير على السلطان عبد الحميد في اضطهادهم، ولهذا من الطبيعي أن يكون الصيادي أحد الذين كادوا له وأوصلوه إلى منصة الإعدام، وهذا ما أشار إليه الكواكبي في مرافعته ببيروت.

معاناة ألكواكبي مع السلطة العثمانية

عرف ألكواكبي بمقالاته، سواء في حلب أم في خارجها، التي تفضح فساد الولاة، لذلك ناصبه هؤلاء العداء، ولم يوفروا أية فرصة لإيذائه، فقد استغلت السلطة محاولة اغتيال (أو بالأحرى تهديد) والي حلب (جميل باشا) من قبل شاب (أرمني) يتدرب على المحاماة في مكتب الكواكبي، فألقت القبض عليه بتهمة التحريض على قتل الوالي، لكنه خرج من هذه التهمة بريئا، برغم ذلك لم تتخلص من مضايقات والي حلب، فقد اتهمه الوالي (عارف باشا) بالتآمر مع الأرمن لإثارة المشاكل في حلب، وقد استغل حادثة تعرض القنصل الإيطالي للإصابة بحجر قرب بيت الكواكبي، ليثبت هذه التهمة، فقبض عليه وصودرت أملاكه، وحكم عليه بالإعدام في محكمة حلب، وكان رئيسها من أعوان الوالي، فقدم الكواكبي استئنافا لإعادة محاكمته في بيروت، نظرا للخلاف بينه وبين الوالي، حيث بُرّيء وعُزل الوالي، بعد أن عانى الكواكبي من السجن مدة عام تقريبا في حلب وبيروت.

لم تكتفِ السلطة بمصادرة حريته الصحفية بمنعه من إصدار صحيفة، ومصادرة حريته الشخصية بالسجن والاستيلاء على أملاكه، بل وصل الأمر بالاستبداد أن اغتصب منه نقابة الأشراف، وأعطاها لأبي الهدى الصيادي الذي زوّر انتسابه لآل البيت، مع أنه من المعروف أن نقابة الأشراف تتوارثها أسرة الكواكبي في حلب والأستانة وبغداد، باعتبارهم من آل البيت من جهتي الأم والأب منذ أيام أحمد الكواكبي في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، وقد كانت نقابة الأشراف مغتصبة من ابن عمه الأكبر منه سنا (حسن الكواكبي) من قبل الصيادي صديق السلطان عبد الحميد ونديمه الأثير! بعد وفاة ابن عمه استحق عبدالرحمن الكواكبي نقابة الأشراف.

وكان يعدّ نفسه وأهل حلب أيضا النقيب الحقيقي وإن لم يصدر أمر سلطاني بذلك، لأن النقابة تكون في الأكبر سناً من أفراد الأسرة

وهكذا لم يكتفِ الاستبداد باغتيال الكواكبي وإنما سارع إلى اغتيال كلمته، التي كانت لظى على الاستبداد، يخافها كما كان يخاف الكواكبي، ويرى فيها تجسيداً لروحه، لذلك لا معنى لقتل الجسد وبقاء روحه الثائرة! لكن هذه الروح، بفضل الله تعالى، باقية بيننا برغم كل هذا القهر، وجدناها حية متألقة ثائرة في وجه الاستبداد في كتابيه ("أم القرى"و"طبائع الاستبداد) وفي بعض مقالاته التي استطاع الباحث جان دايه العثور عليها (جريدة"الشهباء"و"اعتدال"و"العرب") وهي مازالت حية بفضل عناية الباحثين في كل مكان في العالم بما بقي من إنتاجه، لأن عظمة أي إنتاج فكري لا تقاس بكميته، وإنما بفعاليته التي تتجاوز الشرط الزماني والمكاني.

وبذلك نجد أن الكلمة الصادقة التي هي نبض المعاناة اليومية للكواكبي، بقيت حية لا تموت، رغم ما تعرضت له من محاولة اغتيال وقهر على يد الاستبداد، فقد بدت لنا أقوى من المستبد قادرة على مواجهته والقضاء عليه في أي زمان وأي مكان.

رحلات الكواكبي

ذاق الكواكبي صنوف المعاناة على يد الاستبداد العثماني وأعوانه، حتى لم يبق له مصدر رزق، وصار يستدين من أجل متطلبات حياته اليومية، لذلك حين عرض عليه السلطان منصب قضاء (راشيا) كي يبعده عن بلده (حلب) ويضعف تأثيره، تظاهر بقبوله، وسافر إلى الأستانة سرا، ليقوم بتحريات سرية عن أعمال السلطان وزبانيته، ويرى أنواع استبداده في عقر داره، لكن سرعان ما اكتشف أمره، ودعي للإقامة في قصر خاص بالضيافة.

وقد التقى أثناء زيارته تلك بجمال الدين الأفغاني (١٨٩٥) الذي جاء إلى الأستانة (١٨٩٢) وبقي هناك (حتى وفاته أو بالأحرى قتله ١٨٩٧) في منزل للضيافة تحت الإقامة الجبرية، وقد أحس الكواكبي بعد لقائه بالمصير المشابه الذي ينتظره، لذلك سارع بالعودة إلى حلب سرا. لقد كان ظاهرا للعيان رغبة السلطان في التخلص منه، خاصة بعد أن أدرك أن المناصب في حلب لم ولن تغيره.

فرأى الكواكبي حين عرض عليه السلطان منصب القضاء في راشيا وسيلة جديدة لإبعاده، خاصة أن هذا المنصب قد جاء بعد محاولة الاغتيال التي تعرض لها والتضييق على حريته في الأستانة، لذلك قرر الهرب إلى مصر سرا (١٩٠٠) بعد أن رهن البيت الذي كان مسجلا باسم زوجته، ليؤمن تكاليف سفره.

ولو تأملنا أسباب اختيار الكواكبي مصر موطنا له، للاحظنا أنها تنحصر في الحرية: جوهر الوجود الذي عاش من أجله الكواكبي ومات في سبيل تحقيقه، وهذا ما تخيل وجوده في مصر زمن الخديوي عباس، فقد كانت ملاذا للكتاب، الذين هاجر إليها أغلبهم من بلاد الشام، رغبة في الحرية، (التي يلمسها المرء خاصة في الجرائد المصرية التي كانت تتمتع بحرية نقد السلطان عبدالحميد) وإلى جانب الحرية في التعبير.

كانت هناك حرية في استخدام اللغة العربية في الكتابة التي كانت شبه ممنوعة في شرقي السلطنة، لذلك أسس المهاجرون إليها صحفا ومجلات، واستطاعوا أن يسهموا في إغناء الحياة الأدبية والفكرية في مصر، وقد شكلوا صوتا واضحا في الصحافة عرف فيها، واشتهر باسم"الشوام". عاش الكواكبي في القاهرة حوالي سنتين حيث ذاع صيته، وتابع نشر مقالاته في الصحف المصرية، بل نجده قد أصدر فيها"صحيفة العرب"التي لم تلبث أن توقفت، دون أن نعرف السبب، ربما قد يكون بسبب تقارب الخديوي عباس والسلطان عبدالحميد! وقد كان أحد أهم شروط هذا التقارب، ألا يساند الخديوي المناوئين للسلطة العثمانية!

كذلك استطاع أن ينشر فيها كتابيه"أم القرى"و"طبائع الاستبداد"اللذين كتبهما في حلب ولم يستطع نشرهما إلا بعد هربه منها، ويقول نديم الكواكبي (عبدالمسيح الأنطاكي) إن الكواكبي ظل مختفيا في القاهرة حتى طبع كتاب"أم القرى"إذ أرسل منه نسختين إلى الخديوي في الإسكندرية، ونسخة إلى"الشيخ محمد عبده"والثالثة إلى"الشيخ علي يوسف"وقد سرّ الخديوي بالكتاب فطلب إلى الشيخين أن يسعيا للتعرف على صاحب الكتاب الذي لم يذكر اسمه عليه، ومنذ ذلك الوقت نشأت صداقة بين الخديوي والكواكبي التي يبدو أنها لم تعمّر طويلا، بسبب التقارب بين الخديوي والسلطان عبد الحميد، ورفض الكواكبي طلب الخديوي للسفر معه إلى الأستانة للتصالح مع السلطان.

أثناء إقامته في القاهرة، قام برحلتين زار فيهما بلادا عربية وأخرى إسلامية، ليتفهم أحوال المسلمين وليدرس عن كثب مشروع رابطة أم القرى الذي تحدث عنه بشكل نظري في كتابه"أم القرى"فزار السودان والجزيرة العربية واليمن، والتقى القبائل العربية، ليعرف مدى مقدرتها على القتال، وليحرضها على الثورة ضد الأتراك، لكن اللافت للنظر اهتمامه بالشؤون الاقتصادية والجيولوجية لبلاد العرب، حيث ذكر ابنه (كاظم) الذي رافقه في رحلته الثانية، أنه كان يجمع نماذج من صخورها، ويجلبها معه إلى مصر لدراستها من قبل المتخصصين لمعرفة الثروات المعدنية التي تحتويها الجزيرة (وقد كان من بينها على ما يذكر ابنه زيت النفط الذي دلّه عليه الأعراب في الجزيرة).

إذاً لا تبدو الغاية من رحلاته دراسة أحوال الأمة العربية والإسلامية من الناحية السياسية والعسكرية فقط، بل دراسة أحوال البلاد الاجتماعية والاقتصادية، كي يؤسس لدولة عصرية، ترتكز على إمكاناتها الاقتصادية الذاتية، لذلك سعى إلى معرفة ما تملكه من ثروات باطنية بالإضافة إلى ما تملكه من استعداد حربي، فهو يدرك أن حرية الدول لا تكون بجلاء الغريب عنها، وإنما بامتلاك القدرة الاقتصادية التي تستطيع حماية الحرية، وتأسيس بنيان الدولة على أسس متينة، تمنحها استقلالا حقيقيا.

لقد امتلك الكواكبي وعياً سابقا لعصره، فسعى إلى الحرية بأفضل معانيها، جنّد في سبيلها كل ما يملكه من مواهب أدبية وفكرية، وضحى من أجلها بكل ما يملك، حتى دفع حياته ثمناً لها.

اللبرالية في التاريخ العربي الحديث

الكواكبي رائداً

كامل عباس

تمر البلدان العربية الآن في فترة زمنية عصيبة تتشابه مع الفترة التي مرت بها أواخر الاستعمار العثماني في أوجه عدة وأهمها:

– الجهل والتخلف والاحتراب الطائفي المتفشي في النفوس نتيجة استبداد الحكام.

– الهوة الكبيرة التي تفصل بين الحكام والمحكومين وبشكل خاص في أحوال المعيشة ، حيث الغنى والبذخ والترف الفاحش الذي يتمتع به الحكام وأولادهم وأصدقاؤهم وبطانتهم ومواليهم مقابل فقر مدقع لعامة الشعب ، وان كان من خلاف بين المرحلتين فهو يكمن بأن حكام ذلك الزمن كانوا غرباء عن الأمة استعمروها باسم الدين ، أما حكام الزمن الحالي فهم مستعمرون محليون (بلدي صرف) باسم النضال ضد الخارج الطامح بثوراتنا.

أنتجت الفترة الأولى ما سمي بعصر النهضة. يهمنا في هذا البحث من روادها الحلبي السوري عبد الرحمن الكواكبي الذي يطيب لِي ان أسميه عميد اللبرالية العربية ، ولِمَ لا؟ فاللبرالية هي فلسفة الحرية ، والكَواكبي هو القائل (ما أليق بالأسير في الأرض أن يتحول عنها الى حيث يملك حريته ، فان الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط) (١) والحرية نفيض الاستبداد ، وهو الذي قضى حياته وهو يفكر (ما تأثير الاستبداد على الدين ، على العلم ، على المجد ، على المال ، على الترقي ، على التربية ، على العمران. ومن هم أعوان الاستبداد؟ وكيف يكون التخلص من الاستبداد؟ وبماذا ينبغي استبدال الاستبداد؟) (٢)

ولقد كان الكواكبي كسائر الفلاسفة الغربيين الأوائل ، يريد تلك الحرية لتخدم المجتمع ككل ، وليس فئة قليلة منه ، فاذا كان العقد الاجتماعي للبراليين الغربيين الأوائل يراد منه(أن تتلاءم الحرية مع السلطة وان يتوفر قدر من المساواة ، واذا لم تتوفر المساواة تتناقض السلطة مع الحرية لأن هدفها يغدو حماية وتأمين اللامساواة بين البشر) (٣) واذا بذل جون ستوارت ميل وتوكفيل (جهدا خاصا لإقناع مثقفي القرن التاسع عشر ، بان سيادة الشعب شرط غير كاف وانه من دون اقامة نظام من الحماية القانونية لحريات الأفراد والأقليات قد تتحول سيادة الشعب الى قمع أفراد الشعب وقمع حرياتهم) (٤) فان الكواكبي بذل جهدا مشابها لإقناع مثقفي البلدان العربية الاسلامية الواقعة تحت النير العثماني بان معنى الحرية (أن يكون الانسان مختارا في قوله وفعله ولا يعترضه مانع ظالم ، ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ، ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة في المطالبة ، وبذل التضحية ، ومنها حرية التعليم ، وحرية الخطابة والمطبوعات ، وحرية المباحث العلمية ، ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم او غاصب أو غدار متعال.) (٥)

وحرية الكواكبي منٍ أجل إنصاف الفقراء فهو يرى (ان شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقا معلوما للبائس والمحروم ، فيؤخذ من الأغنياء ، ويوزع على الفقراء ، وهذه الحكومات الاسلامية قد قلبت الموضوع ، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء ، وتحابي بها المسرفين والسفهاء) (٦) وهو في كل ذلك لا يريد للفقير (أن يطلب معاونة الغني ، انما يرجوه ألا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ولا يأمل منه الإنصاف ، انما يسأله ألا يميته في ميدان مزاحمة الحياة.) (٧)

وصف الكواكبي الاستبداد بعمق نظري يوازي ان لم نقل يزيد عن فلسفة العباقرة الغربيين أمثال مونتسكيو وروسو وغيرهم ، وما تزال أوصافه تشخص بدقة جوانب كثيرة مما نعاني منه نحن أبناء الشرق (اني أرى قصر المستبد في كل زمان ومكان هو الخوف عينه ،فالملك الجبار هو المعبود ، وأعوانه هم الكهنة ، ومكتبته هي المذبح المقدس ، والأقلام هي السكاكين ، وعبارات التعظيم هي الصلوات ، والناس هم الأسرى الذين يقدمون قرابين الخوف.) (٨)

(الاستبداد لو كان رجلا وأراد ان يحتسب وينتسب لقال: أنا الشر وأبي الظلم وأمي الإساءة ، وأخي الغدر ، واختي المسكنة ، وعمي الضر ، وخالي الذل ، وابني الفقر ، وبنتي البطالة ، وعشيرتي الجهالة ، ووطني الخراب ، أما ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال المال) (٩)

ومثل الفلاسفة الكبار في التاريخ الذين وصفوا استبداد الرعاع بأنه أخطر أنواع الاستبداد ، حذر هو الآخر من دور لعامة الشعب في الاستبداد (العوام هم قوة المستبد ، وقوته بهم عليهم يصول ويطول ، يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء حياتهم ، ويهينهم فيثنون على رفعته.....) (١٠)

تجلت عبقرية الكواكبي في تحذيره من دور العسكر الأساسي في الاستبداد الشرقي.

(في خدمة الاستبداد وسيلتين عظيمتين ، هما جهالة الأمة والجنود المنظمة ، وهما اكبر مصائب الأمم وأهم مصائب الإنسانية ، وقد تخلصت الأمم المتمدنة نوعا ما من الجهالة ، ولكن بُليت بشدة الجبرية العمومية ، الجندية تفسد أخلاق الأمة ، حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال ، وتميت النشاط وفكرة الاستقلال و وتكلف الأمة الإنفاق الذي لا يطاق ، وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشئوم ، استبداد الحكومات القائدة لتلك القوة من جهة و واستبداد الأمم بعضها على بعض من جهة أخرى.) (١١)

وإذا كانت اللبرالية فلسفة الحرية وآلية نشرها في المجتمع عبر الديمقراطية المناسبة له في زمان ومكان تطوره ومستنبتة داخل تربته ، فان الكواكبي شغلته الآلية بنفس المقدار التي شغلته الفلسفة (وحيث أني قد تمخض عندي أن أصل هذا الدواء هو الاستبداد السياسي وداؤه دفعه بالشورى الدستورية ، وقد استقر فكري على ذلك بعد بحث ثلاثين عاما.) (١٢)

لم يكن الكواكبي منظرا فقط ينتج فكرا على شاكلة الفيلسوف العربي الكبير ابن خلدون ويتملق الحكام معللا ذلك بكونه يريد لفكره أن يصل الى المجتمع ليصبح قوة فيه. بل كان الكواكبي منسجم في الفكر والممارسة ، وكان مناضلا صادقا مع نفسه ، فضّل حياة الحرمان والتشرد والملاحقة على مداهنة الحكام ، ودان بشدة دور المثقفين الانتهازيين الذين يتملقون الحكام (ان المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة للتغرير بالأمة باسم خدمة الدين او حب الوطن او توسيع المملكة او تحصيل منافع عامة ، او مسئولية الدولة او الدفاع عن الاستقلال) (١٣) ودفع بالنهاية ثمنا باهظا لصلابته وعدم قدرة العثمانيين في ثنيه عن الترويج لأفكاره لا بالترغيب ولا بالترهيب ، حتى تمكنوا منه عبر عيونهم وجواسيسهم وقضوا عليه بالسم في المكان الذي أبعدوه اليه بعيدا جدا عن موطنه الأصلي حلب!

سيخرج عليَّ كثيرا من علماني بلادي– وما أكثرهم هذه الأيام – منتقدين ومنددين بشدة ، كوني أروج لفكر رجعي مرجعيته

الكواكبي الذي كان يريد أن يعيد البلدان العربية قرونا الى الوراء ويقيم دولة إسلامية مشابهة لدولة الرسول بعد ان فات زمانها ومكانها ، وستكون حجتهم المؤتمر الذي تخيله من اجل نهضة عربية اسلامية ودعا لعقده في مكة المكرمة بتاريخ ١٣١٦هـج – ١٨٩٦ م ، واستفاض في تفاصيل تلك الدولة الاسلامية في كتابه المعروف (ام القرى).

يصح اعتراض هؤلاء عليَّ اذا قبلوا بوصفهم علمانيين دكتاتوريين ، اما ان يوصفوا أنفسهم بأنهم دعاة اللبرالية فذلك لا يصح مطلقا ، هؤلاء يحلمون بمجتمع عربي لا وجود له الا في أذهانهم ، والكواكبي اكثر تقدمية منهم بكثير ، وأي شخص او تيار او فئة لايحكم عليها الواقع بما تقول عن نفسها ، بل بفعلها على ارض الواقع ، نعم ان منهج الكواكبي ولبراليته هي على أرضية اسلامية ، ولكنه يريد ان تكون قاعدتها – كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته – وهل هناك أبلغ من هذا القول ، وهل هناك امة في العالم تطمح الى أكثر من هذا؟ والكواكبي في لبراليته منفتح على الآخرين لدرجة انه (يفضل السلطان العادل الكافر على السلطان المسلم الجائر.) (١٤)

على العكس تماما: ان روح الكواكبي الاسلامية هي المطلوبة هذه الأيام. لأن الاسلام يكاد يكون القوة الثانية في التأثير على هذا الكوكب ، فهل نلغي هؤلاء لأنهم يريدون ان يحافظوا على تراثهم وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ويريدون ان ينظموا حياتهم الاجتماعية والسياسية بالتوافق مع تشريعات دينهم الاسلامي؟! أم نعمل معهم ضمن دولة مدنية كما يربد الكواكبي ، نحن بحاجة الى فهم الكواكبي للإسلام أكثر من أي وقت مضى (ان جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة ، دين النشاط والنظام ، دين القرآن الصريح البيان ، الى صفة إنا جعلناه دين الخيال والخبال ، دين الخلل والتشوش ، دين البدع والتشديد ، دين الإجهاد ، وقد دب فينا هذا المرض منذ ألف عام.) (١٥)

استمعوا الى هذا الاسلامي الذي يقول عن الشرق كلاما فيه من الجرأة ما يفوق مئات المرات كلام العلمانيين الرافضين لحضارة الغرب والداعين للنضال ضد تلك الحضارة (وهكذا بين الشرقيين والغربيين فروق كبيرة ، قد يفضل في الافراديات الشرقي على الغربي وفي الاجتماعيات الغربي على الشرقي مطلقا ، مثال ذلك. الغربيون يستحلفون أميرهم على الصداقة في خدمته لهم والتزام القانون. والسلطان الشرقي يستحلف الرعية على الانقياد والطاعة الغربيون يمنون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلات ، والأمراء الشرقيون يتكرمون على من شاءوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات ، ان الغربي يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه ، والشرقي يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه ملكا لأميره ، الغربي له على اميره حقوق وليس عليه حقوق ، والشرقي عليه لأميره حقوق وليس له حقوق ، الشرقي سريع التصديق و والغربي لا ينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس ، الشرقي أكثر ما يغار على الفروج كان شرفه كله مستودع هناك ، والغربي أكثر ما يغار على حريته واستقلاله ، الشرقي حريص على الدين والرياء فيه ، والغربي حريص على القوة والعز والمزيد منهما ، والخلاصة: إن الشرقي ابن الماضي والخيال ، والغربي ابن المستقبل والمجد.) (١٦)

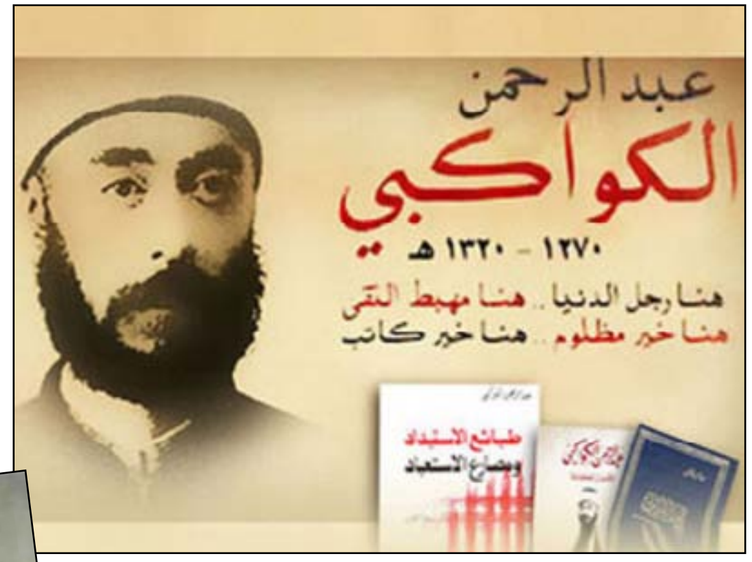

إن رواد النهضة الأولى عملوا بجد وتفان متكاتفين متضامنين ضد استبداد العثمانيين (لدرجة وصلت ببعضهم الى الموت سما كما جرى للكواكبي او للوصول الى المشانق كما جرى مع شهداء السادس من أيار) من اجل نشر الأفكار اللبرالية في البلدان العربية الاسلامية ، لقناعتهم ان الجهل والتخلف أكبر خادم للاستبداد ، ولم يكن همهم الاختلاف فيما بينهم حول المجتمع العربي القادم هل هو اسلامي ام علماني؟، كان همهم التقاطعات المشتركة ففيما بينهم والذي تؤدي الى الحرية وتخدم تطوير وتحديث مجتمعاتهم.

ولم يحدثنا التاريخ عن معارك جانبية بين العلمانيين أمثال فارس الشدياق وفرح انطون وشبلي شميل وبطرس البستاني وعبدالرحمن الشهبندر وبين الاسلاميين امثال محمد عبده وعلي عبدالرازق وعبدالرحمن الكواكبي وجمال الدين الأفغاني ورفاعة رافع الطهطاوي.

ومع أن واقعنا العربي يتطلب جهودا لنهضة جديدة لا تقل عن جهود النهضة الأولى ، نجد المعارك الجانبية على أشدها في ساحتنا السورية بين اليساريين واللبراليين ، لدرجة تثير الاشمئزاز ، على سبيل المثال لا الحصر ما يكتبه مثقفون يساريون سوريون حول مَن يسمونهم اللبراليون الجدد.

– فبعضهم يرى ان هؤلاء يشكلون خطرا على الأمن القومي.

– وآخر يطالب الحكومة السورية ان تتعامل معهم كمجرمين جنائيين وليس كمجرمين سياسيين.

– وآخر يرى ان لا شبيه لهم سوى المفرزات التي تخرج من جسم الانسان.

– وآخر يرى انهم بسطاء سذج يستحقون الشفقة.

– وأخر يرى فيهم جهلة مغرورين يريدون احتكار إرث الديمقراطية.

– وآخر يرى بسبب ظهورهم تعبير عن خيبة أمل ، أكثر مما هو تعبير عن روح فردية قوية ومستقلة ومبادرة.

– وآخر يطالب بالنضال من أجل تحرير الديمقراطية من الفلسفة اللبرالية.

والمشكلة تهون لو أن المقصود باللبراليين الجدد تيار يريد اللبرالية من أجل زيادة الأغنياء غنى والفقراء فقرا ، والمتهمون بأنهم يريدون التحالف مع الخارج من اجل مصالحم.

السهام توجه الى تيار لبرالي جديد أغلب رموزه استبدلوا اللبرالية بالماركسية بعد معاناة طويلة ومريرة داخل أحزابهم الشيوعية– تشبه قلع الضرس حسب وصف أحدهم – وجميعهم – يريدون اللبرالية من اجل تحديث وتطوير المجتمع.

– يريدون لبرالية جديدة لا تقوم على الحريات فقط على اهميتها.

– بل تقدم ضمانا صحيا واجتماعيا وفرصة عمل لأي مواطن يحتاجها.

– هؤلاء يريدون عقد اجتماعي جديد ينبذ العنف ، فلسفتهم الحرية وآلية تلك الحرية الديمقراطية واحترام الآخر ، ولا يوجد لبرالي أصيل يقبل بالعنف كطريق في المجتمع ، فكيف يقبل بالاستقواء بالخارج عبر الدبابات كما يزعم الطرف الآخر.

ان جوهر الخلاف هو سياسي بين الجهتين، لم نتعلم بعد كيف ندير السجال فيه بما يخدم قضيتنا؟

فالجهة الأولى تنظر الى أميركا والغرب نظرة العداء التام وتجد فيه الطامح بثرواتنا والهم الأول عندها هو المقاومة والممانعة للمشاريع الغربية.

في حين ترى الجهة الثانية ، أن هناك مناخا عالميا دوليا مختلفا عن السابق ، على العكس اذا أحسننا صنعا يساعدنا في معركتنا ضد الاستبداد ، والاستبداد هنا ليس المقصود به استبدال حكومة بأخرى ، انه أعمق من ذلك بكثير فهو بنية ثقيلة جثمت على صدورنا منذ اكثر من ألف عام كما قال الكواكبي.

بدلا من ان يفتش التياران على التقاطعات فيما بينهم من أجل نهضة بلدانهم والوقوف بوجه القوى الرجعية التي لا تريد تلك النهضة لأنه يمر عبر مصالحها (سواء كانوا خارجيين ام داخليين) نزيد من ضعفنا وتشتتنا وعدم قدرتنا على الفعل في الواقع.

ولو أخذنا بوجهة نظر الكواكبي لكان وضعنا أفضل بكثير فهو القائل (ان كل هذه الدواعي الفخيمة العنوان في الأسماع والأذهان ما هي الا تخييل وإيهام يقصد بها رجال الحكومة تهييج الأمة وتضليلها حتى انه لا يتثنى منها الدفاع عن الاستقلال ، لأنه ما الفرق على امة مأسورة لزيد ان أسرها عمرو.. وما مثلها الا الدابة التي لا يرحمها راكب مطمئن ، مالكا كان او غاصبا.) (١٧)

بدل المعارك الهامشية يُفترَض بنا جميعا قوميين ويساريين ولبراليين واسلاميين متابعة ما بدأه رائدنا الكواكبي الذي أنهى مقدمة كتابه الشهير بهذه الكلمات.

هذا جهدي وللناقد الفاضل أن ياتي قومه بخير منه ، فما أنا إلا فاتح باب صغير من أسوار الاستبداد عسى الزمان يوسعه.

عن الحوار المتمدن

إشكالية الركود الاجتماعي والاستبداد عند عبدالرحمن الكواكبي

إبراهيم الحيدري

يُعد عبدالرحمن الكواكبي واحداً من رواد النهضة العربية - الإسلامية (ولد في حلب العام ١٨٤٩ وتوفي بالقاهرة العام ١٩٠٢) الذين أخذوا يتلمسون طريقهم على مشارف العصر الحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر ويتطلعون إلى تغيير الواقع الفكري والاجتماعي عن طريق إعادة بناء الذات والتعامل مع الآخر وفق رؤية متفتحة على الحضارات الأخرى وفتح باب الحوار مع الثقافات الأخرى، ومواكبة أفكار التطور والتقدم الاجتماعي، وبعد أن شعر بأن العرب والمسلمين مازالوا مكبّلين بقيود البنية التقليدية للمجتمع العثماني وسلطته الاستبدادية التي كان من مظاهرها سيطرة الطبقة العسكرية الأرستقراطية التي دعمت من قبل بعض رجال الدين الذين حصلوا على امتيازات عالية من الباب العالي من جهة، وضعف الأوتوقراطية الشرقية من جهة أخرى وما رافقها من اقتصاد استهلاكي غير منتج وإدارة بيروقراطية ضعيفة ومتخلفة وإسراف وتبذير وانقسام اجتماعي شبه طبقي، مع غياب أية مسئولية أمام الشعب ومصير الأمة الإسلامية ومستقبلها. وساعدت قوة التقاليد التي استحكمت في البنية الاجتماعية قرونا كثيرة على حدوث انهيارات اقتصادية وتفكك في الإدارات المدنية والعسكرية إلى جانب صراعات داخلية من جهة ومع قوى الاستعمار الخارجية من جهة أخرى، وهذه أسهمت في تفكك الدولة العثمانية وانهيارها في الأخير.

وفي الواقع كان للتدخلات الاستعمارية دور لا يستهان به في تغيير صورة «السلطنة» وكشفها وذلك بسبب تطور الأفكار القومية والليبرالية والوطنية في أرجاء الامبراطورية المترامية الأطراف، جنبا إلى جنب مع التدهور الاقتصادي والحضاري. ولعب عصر التنوير الإسلامي دورا مهما في إثارة روح النقد والتذمر عن طريق العلماء والمصلحين الكبار من رواد النهضة العربية – الإسلامية الذين حاولوا إصلاح الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتردية استنادا إلى الفكر الإسلامي النيّر وتجذر العقيدة الإسلامية في النفوس وإذكار روح النقد والمعارضة. ومن الملاحظ أنه عندما يفقد المسلمون قيادة عالمهم يتحولون إلى العقيد الإسلامية يبحثون فيها ثانية عن هويتهم الضائعة والتخلص من محنهم وضياعهم.

وفي الوقت الذي سادت في أوروبا الأفكار القومية والليبرالية والديمقراطية، كانت الأفكار الدينية في الشرق من أقوى المحركات الفاعلة في الحركات الاجتماعية وفي عمليات التغير والتغيير السياسية. ووجد المصلحون الاجتماعيون إمكان تحقيق تقدم اجتماعي وثقافي يمكنه أن يقود إلى حركة تحرر تهدف إلى إصلاح شامل، اجتماعي – اقتصادي أولا وثقافي – سياسي ثانيا، وبالتالي تحقيق الهوية على أساس مبدأ «الاجتهاد»، تلك العوامل التي كونت دافعا ديناميكيا موحدا يساعد على تكوين «الدولة القومية» فيما بعد، مثلما يساعد على اللحاق بالغرب المتقدم علميا وتكنولوجيا، وهو ما كان أيضا عاملا مهما آخر في تحقيق الهوية، الذي أنتج بدوره البحث عن صدقية وصوغها في مفاهيم أولية.

إن الوعي الديني والحماس الوطني والقومي الذي أخذ ينمو بفعل حرمان الأكثرية من حقوقها الوطنية والقومية واختلاط مفهوم الوحدة العربية مع مفهوم الوحدة الإسلامية، وكذلك حاجات العرب لتجديد موقفهم من الآخر وتأثير الاستعمار الغربي وما ارتبط به من اقتصاد رأسمالي تابع ومشوه وكذلك دخول الأفكار الاشتراكية الجديدة التي تنادي بالمساواة، قادت كلها إلى تحريك الوعي بالواقع البائس والمصير المرتقب والتوجه إلى الإسلام باعتباره الهوية، مثلما هو التاريخ والمستقبل. في مثل هذه التربة الغنية بالتناقضات تطورت الحركات الدينية – الاجتماعية الإصلاحية في نهاية القرن التاسع عشر، وفيها تبلورت اهتمامات رواد الإصلاح الاجتماعي في معرفة عوامل التخلف والركود الاجتماعي وطرح فكرة تقدم الآخر وأسباب قوته، ووجدوا أن مفتاح نهضة المجتمع وتقدمه هو في شقهم طريقا خاصا بهم يقودهم إلى التقدم والرقي وكان على رأس هؤلاء المصلحين جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي وهبة الدين الشهرستاني.

ولد الكواكبي في حلب من أسرة علمية شارك بعض أفرادها في جهاز الدولة وفي القضاء والإفتاء، وكانت للأسرة مدرسة دينية خاصة تدعى «المدرسة الكواكبية». وتلقى الكواكبي دروسه الأولية في حلب ثم في أنطاكية وتعلم دروس العربية والدين واللغات والتركية والفارسية، التي ساعدته على الاطلاع على عدد من أمهات الكتب في الفقه والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات. ومع أنه لم يتعلم أية لغة أوروبية، غير أنه استطاع الاطلاع على جوانب كثيرة من النهضة العلمية والتكنولوجية وكذلك على التطورات السياسية في أوروبا، كما أن اشتغاله في صحيفة «الفرات" التي كانت تصدر في حلب، وكذلك رئاسته لتحرير صحيفتي «الشهباء" و«الاعتدال" ساعدته على توسيع مداركه الفكرية والسياسية. وكانت تلك الصحف منبرا فكريا مهما ساعد كثيرا من الشباب الأحرار آنذاك على التعبير باللغة العربية عن آرائهم وتطلعاتهم الإصلاحية وآرائهم في الحرية والسلطة والاستبداد. وبسبب روحه الوطنية وآرائه الجريئة أقفلت السلطات العثمانية صحيفة «الشهباء" العام ١٨٧٨م ثم صحيفة «الاعتدال" العام ١٨٧٩م، واضطر على اثر ذلك إلى ترك ميدان الصحافة. تنقل الكواكبي بين مناصب إدارية كثيرة واشتغل بالتجارة حتى أصبح رئيسا للغرفة التجارية. ثم رئيسا لكتّاب المحكمة الشرعية. وبسبب حسّه الوطني المرهف ومواقفه الإصلاحية الجريئة التي وقفها ضد الظالمين والمستبدين تعرض لاتهامات قاسية وجهها إليه الوالي العثماني عارف باشا ما عرضه للمحاكمة والسجن واضطر أخيرا إلى ترك سورية والهجرة إلى بلاد الله الواسعة «لأنه من غير المقبول أن يعيش الإنسان في بلد وهو مستضعف، وأن من واجبه التنقل في ديار الله الواسعة».

تنقل الكواكبي في دول سواحل افريقيا الشرقية والجنوبية وكذلك في سواحل آسيا وبلاد العرب والهند، وأوصلته رحلاته حتى سواحل الصين. وكان في كل بلد يحط فيه رحاله يدرس أوضاعه وتقاليده وحال السكان فيه من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حتى استقر به المطاف أخيرا في مصر، إذ التقى كبار علماء الدين ورجال الإصلاح وأقام علاقات وثيقة مع رشيد رضا ومحمد كرد علي وغيرهما. وهكذا وجد الكواكبي في مصر القاهرة مناخا ملائما يناسب أفكاره الإصلاحية، فانكب على الدرس والكتابة وتنسيق أفكار وتأليف الكتب. وفي عزّ عطائه وجد العثمانيون فيه خطرا يهدد سلطانهم لما في آرائه وأفكاره من تحريض على التحرر والثورة، فدفعوا بشخص ثالث وضع السم في طعامه. وكانت وفاته العام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م ودفن بالقاهرة واعتبره البعض شهيد الجهاد في سبيل الله، التزاما بحديث رسول الله «ص» «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر».

أرجع الكواكبي تخلف المجتمع الإسلامي وركوده إلى الابتعاد عن روح الإسلام، كما أرجع أسباب المشكلات الاجتماعية والسياسية التي ألمت بالعالم الإسلامي إلى عدم الالتزام بمبادئ الدين الحنيف، وهي في الوقت ذاته، سبب الاستبداد الذي أدى بدوره إلى ركود المجتمع وتدهور الدولة العثمانية.

ومثلما تأثر الكواكبي بكبار المصلحين الإسلاميين وخصوصا جمال الدين الأفغاني، تأثر أيضا بآراء عبدالرحمن بن خلدون في العمران البشري والاجتماع الإنساني، وكذلك بأفكار التقدم العلمي والتكنولوجي ومبادئ التطور الاجتماعي التي سادت في أوروبا آنذاك.

كتبَ الكواكبي كتابين مهمين هما:

١- «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، وهو كتابه الرئيس الذي حاول في «تبيان مورد الداء الدفين حتى يتعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه من تخلف وركود فلا يعبثون على الأغيار ولا على الأقدار».

٢-«أم القرى»، وهو كتابه الثاني الذي عالج فيه موضوعات اجتماعية وسياسية ربط فيها بين الاستبداد والركود الاجتماعي، والاستبداد وتخلف العلاقات الاجتماعية وكذلك العلاقة بين السياسة والمجتمع، وقدم إلينا فيه مشروعا مبسطا لدولة إسلامية مثالية تقوم على مجلس شورى «ديمقراطي»، وهو شكل من أشكال نظام الحكم المأخوذ من القرآن والسنة كبديل للاستبدادية، كما قدم إلينا في «أم القرى» مقدمات أولية لحل المشكلات الاجتماعية وكذلك نموذجا سياسيا تمحور حول تغيير بنية السلطة في المجتمع. إذ تستبدل سلطة المستبد بسلطة «الخليفة» شريطة أن يحاط بمجلس من الأمناء الذين يمثلون الشورى – الديمقراطية.

من الناحية النظرية يُعد كتاب «طبائع الاستبداد" أكثر أهمية من «أم القرى» إذ عالج فيه تأثير الاستبداد على العقيدة الإسلامية والأخلاق والحضارة وكذلك على العلاقات الاجتماعية والتطور الاجتماعي والسياسي. وفي كل الموضوعات التي عالجها الكواكبي كان الاستبداد هو المحور الرئيسي فيها، وأهم أسباب التأخر والتدهور والركود باعتباره شكلا من أشكال الحكم التعسفية اللاعقلانية التي وقع الكواكبي نفسه ضحية من ضحاياها.

إن أهمية مقومات الكواكبي الاجتماعية تنطلق من أسئلته عن أسباب التدهور الاجتماعي والاقتصادي وكذلك الأخلاقي في المجتمع الإسلامي. ومثل جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده طرح الكواكبي إشكالية التخلف الاجتماعي والثقافي في سؤال حرج: هل يعود التخلف إلى نكوص المسلمين عن الدين فحسب، أم أن السبب ذو طبيعة سياسية؟ وكان الجواب واضحا وصريحا، لأن من خصائص الدولة الاستبدادية ترك الدين وتراجع العقيدة، ولذلك فإن التحرر السياسي من هذا الاستبداد يجب أن يؤخذ بالقوة.

وعلى عكس مفكري ذلك العصر وضع الكواكبي مفهوما اجتماعيا جديدا أرجع بموجبه التخلف الاجتماعي إلى بنية السلطة الاستبدادية (الشمولية)، لأن الاستبداد هو على طرف نقيض من التقدم، لأنه ينتج علاقات اجتماعية مشوهة ومستلبة تمتلخ الأفراد وتجردهم من جميع طاقاتهم وإمكاناتهم الإبداعية، فالاستبداد يتطلب «موقفا» إزاء وضعية مسخت فيها حقوق الناس. وبهذا يصبح الاستبداد عند الكواكبي ليس الرشد والحرية، ولا التنوير ولا التقدم الاجتماعي، وإنما الجهل والغباء والرذيلة والجنون. وإن الاستبداد يعلن نفسه في الوجود الميداني بأسلوب غير عقلاني وغير عادل، ولهذا فهو عدو الحق والحرية، و«إذا كان الحق أبا البشرية، فالحرية أمها». وفي مركز النظام الاستبدادي يقف المستبد عاجزا عقليا ونفسيا لا حول له ولا قوة إلا بالمرتزقة والمتزلفين والمادحين «وما أكثرهم في زمن الفساد». وللتعويض عن عجزه وعزلته وبؤسه يجمع المستبد حوله الانتهازيين وضعاف النفوس والمتزلفين لكسر عزلته وإشباع غروره وجنون العظمة عنده ثم يقوم بإضعاف نفوسهم وشل قدراتهم وعمي أبصارهم، ولا يلحق الاستبداد بالمقهورين فحسب، بل يمتد إلى القاهرين أنفسهم أيضا بحيث تصبح الدولة الاستبدادية كلها مستبدة، «من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كنّاس الشوارع». وهكذا فالمستبد يشخص النظام الاستبدادي لأن القرارات لا تصدر إلا عنه. أما التابعون فلا يمثلون سلطته، وبذلك يصبح الاستبداد دولة بوليسية تقف ضد أي تطور وتقدم.

والظلم من صميم الاستبداد، فهو يدمر قوى الإنتاج والإبداع فيتحول كل شيء إلى صحراء. فبدل العلوم والحضارة ينمو الإرهاب والبطش ويتحول الوطن إلى أرض مجدبة علميا «لأنها لا تنبت سوى شوك الإرهاب كما أن من طبيعة الاستبداد أنه يمنع حرية النقد لأنه يعيش حالة خوفٍ مستمرة».

ويصف الكواكبي مواطني الدولة الاستبدادية بالمساجين الذين يحلمون بالخلاص وينتظرون منقذا ومخلصا من خارج هذا العالم، وذلك بسبب الجهل واليأس والاستسلام للقضاء والقدر، وبالعكس من ذلك، فإن التطور العلمي والتكنولوجي لا يمكن أن ينمو إلا حيث يكون العقل متحررا، فإذا حجب صوت العقل ينمو التخلف والركود، وبهذا فالاستبداد هو عدو العلم وعدو التقدم.

وبحسب الكواكبي فإن الاستبداد يقف في أدنى المراتب، غير أن المستبد يبرره بشرعية دينية ويدوس بذلك على جميع القيم، وفي الوقت ذاته يظهر للناس وكأنه حام لها، وبذلك تصبح الوسائل مبررًة للأهداف، فكل شيء ممكن ومسموح به من أجل تثبيت سلطته، فليس هناك حدود فاصلة بين ما هو أخلاقي ولاأخلاقي. وبهذا يبرهن الاستبداد بكونه نظاما لاإنسانيا ومأساة كبيرة للبشرية لأنه لا يخدم القيم والمعايير النبيلة وإنما يستلب تاريخ المسلمين وحضارتهم. وإذا أصبحت دولة المستبد أداة للإرهاب فسيعيش المستبد الطاغي في حال مستمرة من الخوف والرعب، لأنه لا يثق بأحد، لا بأقربائه ولا بالمحيطين به ولا بالمتزلفين والمرتزقة الذين يعيشون على فتات موائده. وفي مجرى الاستبداد تنقطع العلاقات بين الإنسان والتاريخ ويتعمق الشك بالمجتمع والحضارة، حتى يصل الشك إلى نفسه أيضا، وبذلك يكون بعيدا عن جميع القيم العالية والأخلاق الفاضلة. في مشروعه لقيام دولة إسلامية مثالية يقدم الكواكبي حلا لمشكلة نظام الحكم يتمثل بتأسيس نظام برلماني يمنع المستبد من حق امتلاك الناس، لأن جميع المواطنين سواسية أمام الله والقانون ولأن القانون يحفظ للجميع حقوقهم الأساسية ويصون كرامتهم ويوزع المسئوليات بينهم بالعدل حتى لا يكون هناك استغلال وتسلط، كما تناط بالبرلمان (مجلس الشورى) رعاية نظام للتربية والتعليم والزراعة والتجارة والصناعة، كما يكون مسئولا عن إدارة مؤسسات الدولة وتطبيق القوانين ومراقبتها.

كان الكواكبي مصلحا اجتماعيا ومفكرا منورا حلم بالتخلص من الإرث الاستبدادي الممتد عبر تاريخ العالم العربي – الإسلامي الرسمي، وعلم تماما بأن تخطي الركود الاجتماعي والثقافي من دون قيام دولة إسلامية رشيدة وموحدة غير ممكن. ومن هنا يمكن فهم آرائه النظرية عن «دولة الفلاسفة" المثالية – كما عند أفلاطون، التي تستمد مبادئها الأساسية من القرآن والسنة وتتفتح على الفلسفة السياسية الأوروبية الحديثة، لتحقيق «ديمقراطية شعبية" عن طريق «مجلس شورى» يتكون من قضاة مستقلين يستطيعون ضمان مراقبة مستمرة على الموظفين. وفي الواقع لم تكن آراء الكواكبي الإصلاحية سوى رد فعل للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عاشها المسلمون في ظل الدولة العثمانية المستبدة واستجابة لنداءات «المشروطية» التي تعالت آنذاك، غير أن آراءه وأفكاره بقيت نظرية وبعيدة عن أية ممارسة عملية. وفي تبنيه للآراء والأفكار التي سادت في أوروبا حينذاك، كان الكواكبي يعتقد بأن من السهولة أن يكون المرء سيد الموقف وأن يقوم بتطبيق الأفكار الديمقراطية في تربة مازالت غير صالحة، لذلك جاءت رؤيته ذات بعد واحد ولم تصل إلى السبب الرئيسي لتدهور السلطنة العثمانية التي أخذت منذ منتصف القرن التاسع عشر تتخبط في مسالك عشوائية قادتها أخيرا إلى تدهور اقتصادي وتفكك في بنياتها الاجتماعية والثقافية التي هي إحدى نتائج سيطرة النظام شبه الرأسمالي – التجاري.

وفي الوقت الذي سعى فيه الكواكبي إلى تغيير المجتمع من الخارج، كان الداخل يحتاج إلى تغييرات بنيوية عميقة وشاملة ونظرة نقدية فاحصة أكثر عمقا تتخطى الانبهار بالتقدم العلمي والتكنولوجي في أوروبا، إلى إمكان تخطي العالم الإسلامي لأسباب تخلفه وركوده، ولذلك جاءت تصورات الكواكبي حبيسة حدود ضيقة. ومع ذلك حوربت أفكاره بقوة من قبل السلطنة العثمانية الاستبدادية وكذلك من قبل بعض رجال الدين، ما اضطره إلى ترك بلاده والهجرة إلى أرض الله الواسعة، فمات بعيدا عن مسقط رأسه، وبقي ذكره خالدا مع المصلحين الكبار، شمعة من شمعات عصر التنوير الإسلامي

لقد كتب على ضريح المفكر الخالد عبدالرحمن الكواكبي الذي توفي في القاهرة متأثرا بسم دُس له في فنجان القهوة عام ١٩٠٢ حيث دُفن فيها. ونقش على قبره بيتان- لحافظ إبراهيم الشاعر المعروف.

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى-- هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

وأقرؤوا (أم الكتاب) وسلموا-- عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

عبدالرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) مفكر وعلامة عربي سوري رائد من رواد التعليم ومن رواد الحركة الإصلاحية العربية وكاتب ومؤلف ومحامي وفقيه شهير. ولد في سنة ١٨٤٩ في مدينة حلب لعائلة لها شأن كبير.

في مدينة حلب التي كانت تزدهر بالعلوم والفقهاء والعلماء درس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة في المدرسة الكواكبية التي تتبع نهج الشريعة في علومها، وكان يشرف عليها ويدرّس فيها والده مع نفر من كبار العلماء في حلب...

علي عجيل منهل

عبد الرحمن الكواكبي - ١٨٥٤-١٩٠٢-

بين محاربة الاستبداد وتعليم المرأة

بدأ الكواكبي حياته بالكتابة إلى الصحافة وعُين محرراً في- جريدة الفرات - التي كانت تصدر في حلب، وعرف ألكواكبي بمقالاته التي تفضح فساد الولاة، ويرجح حفيده سعد زغلول الكواكبي أن جده عمل في صحيفة"الفرات"الرسمية سنتين تقريبا، براتب شهري ٨٠٠ قرش سوري.

ولذلك رأى أن ينشئ صحيفة خاصة، فأصدر في حلب صحيفة"الشهباء"عام ١٨٧٧، وكانت أول صحيفة تصدر باللغة العربية، وسجلها باسم صديقه كي يفوز بموافقة السلطة العثمانية ايامها وبموافقة والي حلب،لم تستمر هذه الصحيفة طويلاً، إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد، فالحكومة كما يقول الكواكبي نفسه -"تخاف من القلم، خوفها من النار- بسبب حبة للصحافة والكتابة تابع جهاده الصحفي ضد الاستبداد فأصدر عام ١٨٧٩ باسم صديق آخر جريدة"الاعتدال"سار فيها على نهج"الشهباء"لكنها لم تستمر طويلا فتوقفت عن الصدور.

بعد أن تعطّلت صحيفتاه الشهباء والاعتدال، انكبّ على - دراسة الحقوق- حتى برع فيها، وعيّن عضواً في لجنتي المالية والمعارف العمومية في حلب، والأشغال العامة -النافعة-ثم عضواً فخريا في لجنة امتحان المحامين للمدينة.

استمر- الكواكبي بالكتابة ضد السلطة- التي كانت في نظره- تمثل الاستبداد، وعندما لم يستطع تحمل ما وصل اليه الامر من مضايقات من السلطة العثمانية في حلب التي كانت موجوده آنذاك- سافر الكواكبي إلى- آسيا الهند والصين وسواحل شرق آسيا وسواحل أفريقيا وإلى مصر - حيث لم تكن تحت السيطرة المباشرة للسلطان عبد الحميد، وذاع صيتة في مصر وتتلمذ على يدية الكثيرون وكان واحدا من أشهر العلماء.

أمضى الكواكبي حياته مصلحا وداعية إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية وقد شكل النوادي الإصلاحية والجمعيات الخيرية التي تقوم بتوعية الناس وقد دعا المسلمين لتحرير عقولهم من الخرافات وقد قسم- الأخلاق إلى فرعين فرع أخلاقي يخدم الحاكم المطلق- وفرع يخدم الرعية أو المحكومين ودعا الحكام إلى التحلي بمكارم الأخلاق لنهم الموجهون للبشر ودعا لإقامة خلافة عربية على أنقاض الخلافة التركية وطالب العرب بالثورة على الأتراك وقد حمل الحكومة التركية المستبدة مسؤولية الرعية.

ألف العديد من الكتب وترك لنا تراثا ادبيا كبيرا من- كتب عبدالرحمن الكواكبي- طبائع الاستبداد - وام القرى - كما ألف العظمة لله - وصحائف قريش- وقد فقد مخطوطين مع جملة اوراقه ومذكراته ليلة وفاته، له الكثير من المخطوطات والكتب والمذكرات التي طبعت وما زالت سيرة وكتب ومؤلفات عبدالرحمن الكواكبي مرجعا مهما لكل باحث.

الكواكبي والمرأة

ان موقف أي مفكر من- المرأة ومكانتها ودورها في المجتمع - أحد أهم المؤشرات التي تعكس مستوى استنارة ذلك المفكر وتقدميته- ومدى قدرة المشروع الفكري الذي يطرحه على النهوض الفعلي بالمجتمع، انطلاقاً من حقيقة أن أي مشروع جدي لا يمكن أن يجد طريقه إلى التحقق الفعلي -ما لم يسند إلى -المرأة - المكانة التي تستحقها والأدوار التي يمكن أن تقوم بها في عملية بناء ذلك المشروع.

كثيرة هي الإشارات التي تؤكد أن علاقة حميمة متميزة قوامها الحب والمودة والاحترام كانت تجمع الكواكبي بقريباته النساء، وربما كان ذلك يعزى،إلى القيم المبكرة التي غرستها فيه خالته (صفية) التي تولت تربيته وتعليمه في أنطاكية بعد رحيل أمه ولم يكد يتجاوز السادسة من عمره. وفيما يبدو، تركت تلك السيدة المتعلمة المثقفة بصماتها واضحة على نفسية الطفل، فجعلته يعامل المرأة في حياته العملية معاملة احترام وتوقير.

لقد كانت تجمع الكواكبي بزوجته (فاطمة) علاقة حب شديدة، وصفت من جانب إحدى سيدات العائلة بأنها علاقة"حب بين عاشقين".

ويظهر الود الذي يكنه الكواكبي لزوجته وبناته ولا يتردد في الإفصاح عنه بصورة واضحة في رسالة يرسلها لولده -أسعد -أثناء زيارته لإسطنبول- حيث يقول عن زوجته:"إذا هي نسيتنا فنحن لا ننساها، ولا تخرج من فكرنا لا في النهار ولا في الليل...- وينهي رسالته لولده بقوله:"وحافظوا على توصياتنا لكم، خصوصاً من جهة كسب رضاء ودعاء والدتكم ومداراة وملاطفة خواتكم.

وفي حادثة طريفة تبرز متانة العلاقة بين الكواكبي وبناته وحميميتها ووصولها إلى مستوى غير مألوف من التواصل الودود في تلك الفترة الزمنية التي حفلت بمظاهر التشدد في العلاقات الاجتماعية بوجه عام، نجده يرتدي ثوباً بدائياً غير متقن التفصيل من صنع ابنته - عفيفة- لتي لم تكن قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها حينئذ، وعندما تطلب منه زوجته أن يخلعه فوراً لسوء حياكته، يصر على الاستمرار في ارتدائه قائلاً:"لن أخلع شيئاً خاطته لي ابنتي، وسأظل أفخر به"، لينتهي الجدال بأن تسمح له زوجته بارتدائه في البيت فقط، من دون الظهور به أمام الغرباء.

إلا أن العلاقة الدافئة المميزة بين الكواكبي وقريباته من النسوة لم تحل دون تبنيه نظرة غريبة إلى طبيعة المرأة، يغلب عليها الطابع السلبي، وتشي بقدر غير قليل من الارتباك والالتباس في فكر الرجل وتأثره بما اختزنته الثقافة الشعبية من شوائب تنتقص من مكانة المرأة وتنسب إليها بعض الصفات الحاطة لمكانتها مقارنة بالرجل.

طبيعة المرأة عند الكواكبي:

- يبدو أن مفكرنا الكواكبي لم يسلم من التأثر بمكونات الثقافة الشعبية المتغلغلة عميقاً في ثنايا الوعي العربي على الرغم من ثقافته الدينية الواسعة ورحابة أفقه الإنساني، فنجده مثلاً يعزو عدم أهلية كثير من سلاطين بني عثمان للحكم إلى جملة من الأسباب منها: قضاء معظم أوقاتهم قبل تقلدهم الحكم وبعده في معاشرة السراري والجواري والإماء؛ ما أفضى إلى أن تتغلب"على طباعهم خصائص النساء، من شدة الحلم، وسلامة الصدر، والميل إلى المشاحنة، والغلو في الزينة الظاهرية، والاعتماد في تكريم الناس على شرف المنتسبين إليهم.. إلى غير ذلك من صفاتهن"-.

وبغض النظر عما إذا كان الكواكبي يعتبر أن تلك الخصائص مكونات أصيلة ثابتة أم مكتسبة متحولة في طبيعة المرأة، فإن خطابه السالف يضمر شكلاً من أشكال النظرة الدونية إلى المرأة، وذلك بدعوى حيازتها خصائص تنزع عمن يحملها الجدارة لتقلد مراكز الحكم!

وحول طبيعة المرأة أيضاً مقارنة بطبيعة الرجل، يواصل الكواكبي تنظيراته بصورة اعتسافية قد لا يسندها أساس علمي موضوعي، مستمداً من الثقافة الشعبية بعض مقولاتها الشائهة التي- تصور المرأة كائناً مراوغاً ومحتالاً ومسكوناً بالدهاء- فيقول في فقرة عجيبة غريبة كأنها تستحضر كيد النساء ومكرهن في رواية من روايات ألف ليلة وليلة:"إن الرجال ميالون بالطبع إلى زوجاتهم، والمرأة أقدر مطلقاً من الرجل في ميدان التجاذب للأخلاق، ولا يتوهم عكس ذلك إلا من استحكم فيه تغرير زوجته له بأنها ضعيفة مسكينة مسخرة لإرادته، حال كون حقيقة الأمر أنها قابضة على زمامه تسوقه كيف شاءت، وبتعبير آخر يغرّه أنه أمامها وهي تتبعه، فيظن أنه قائد لها، والحقيقة التي يراها كل الناس من حولهما دونه أنها إنما تمشي وراءه بصفة سائق لا تابع.

وفي أطروحة طافحة بالسخرية اللاذعة يضرب صاحب طبائع الاستبداد . مع الأسف الشديد . بعيداً في بيداء التجني على المرأة والتحامل عليها والاستبداد بها، زاعماً أن استبدادها بالرجل هو من ضمن مقدمات"تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحمي بقلاع الاستبداد السياسي"فنجده يقول:"إن البشر المقدر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون نصفهم كَلّ على النصف الآخر، ويشكل أكثرية هذا النصف الكَلّ نساء المدن. ومَن النساء؟ النساء هن النوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بأنه هو الحافظ لبقاء الجنس، وأنه يكفي للألف منه ملقح واحد، وأن باقي الذكور حظهم أن يساقوا للمخاطر والمشاق أو هم يستحقون ما يستحقه ذكر النحل، وبهذا النظر اقتسمت النساء مع الذكور أعمال الحياة قسمة ضيزى؛ وتحكمن بسن قانون عام به جعلن نصيبهن هين الأشغال بدعوى الضعف، وجعلن نوعهن مطلوباً عزيزاً بإيهام العفة، وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين في الرجال، وجعلن نوعهن يُهين ولا يهان ويَظلم أو يظلم فيعان؛ وعلى هذا القانون يربين البنات والبنين، ويتلاعبن بعقول الرجال كما يشأن حتى أنهن جعلن الذكور يتوهمون أنهن أجمل منهم صورة. والحاصل أنه قد أصاب من سمّاهن بالنصف المضر! ومن المشاهد أن ضرر النساء بالرجال يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف. فالبدوية تشارك الرجل مناصفة في الأعمال والثمرات فتعيش كما يعيش، والحضرية تسلب الرجل لأجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث وتعينه في أعمال البيت، والمدنية تسلب ثلاثة من أربعة وتود أن لا تخرج من الفراش، وهكذا تترقى بنات العواصم في أسر الرجال. وما أصدق بالمدنية الحاضرة في أوروبا أن تسمى المدنية النسائية لأن الرجال فيها صاروا أنعاماً للنساء".

على الرغم من طرافة فكرة الكواكبي حول تقسيم ا لعمل القائم بين الرجال والنساء - وتصويره تلك الفكرة بقالب هزلي تهكمي، إلا أن من الواضح أن الرجل يقلب حقائق التاريخ وينسفها معيداً كتابتها بطريقة ربما لم يسبقه أحد إليه! فهو يجعل من إجبار المرأة على الانكفاء في بيتها وإفناء شبابها وصحتها في أعمال منزلية مرهقة ومملة ومغلقة للأفق، وفي مناكفة الأبناء واحتمال مشاكساتهم، من دون أن تنال من التقدير أو الأجر الحد الأدنى الذي يتناسب مع ضخامة أعبائها، يجعل من كل ذلك امتيازاً تحايلت المرأة من أجل خداع الرجل والاستئثار به! متناسياً أن الرجل هو الذي قام بسنّ ذلك القانون المجحف بحق المرأة وفرضه عليها بذريعة الحفاظ على الشرف. ولو وجد أن ذلك القانون يضر بمصالحه وامتيازاته، وهو صاحب الأمر والنهي في واقع الأمر، لسارع إلى نقضه وتبديله، وهذا ما يجرى فعلاً في أيامنا، فبعد أن اكتشف الرجل أن بالإمكان تطوير ذلك القانون ليزيد من مكاسبه ويخفف من التزاماته، عمد إلى تطويع القانون بحيث أجبر المرأة على الخروج من البيت للعمل المأجور خارجه، ضارباً الصفح عن مزاعمه القديمة بشأن الشرف التليد، دون أن يجعل المرأة في حل من شيء من التزاماتها المنزلية المألوفة، لتصبح المسكينة خادمة في البيت وخارجه!

ومما يثير الاستغراب والدهشة أن- الكواكبي - وهو العالم الفقيه المتضلع في أمور الدين، لا يكتفي بطروحاته الظالمة تلك بخصوص طبيعة المرأة، بل إنه أيضاً يقحم الشريعة نفسها في عملية إثبات صحة أفكاره دون توافر ما يسوغ ذلك من أدلة شرعية، إن لم تتعارض تلك الأفكار مع الأدلة الشرعية ذاتها! فهو فيعزو بعض أوامر الشريعة المتعلقة بالمرأة إلى وعي الشرع بدهاء المرأة قبل أي شيء آخر! قائلاً:"وما قدّر دهاء النساء مثل الشريعة الإسلامية، حيث أمرت بالحجب والحجر الشرعيين حصراً لسلطتهن وتفرغهن لتدبير المنزل، فأمرت باحتجابهن احتجاباً محدوداً بعدم إبداء الزينة للرجال الأجانب، وعدم الاجتماع بهم في خلوة أو لغير لزوم. وأمرت باستقرارهن في البيوت إلا لحاجة. ولا شك أنه ما وراء هذه الحدود إلا فتح باب الفجور، وما هذا التحديد إلا مرحمة بالرجال وتوزيعاً لوظائف الحياة".

بكل تأكيد، لا يمكن أن تكون الشريعة الإسلامية قد انطلقت في ذهابها إلى وجوب ستر المرأة وتقييد اختلاطها غير المبرر مع الأغراب من أرضية افتراض الدهاء في المرأة، ففي هذا حكم سلبي جائر لا يمكن للشريعة السمحة أن تتورط بإطلاقه على النساء، هؤلاء اللواتي كرمهن الله جل جلاله ككل ولد آدم بقوله عز من قائل:"ولقد كرمنا بني آدم..."وأكد عدم اختلافهن في الأصل عن أشقائهن الذكور بقوله تعالى:"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، وشدد على عدم التفريق بينهن وبين الرجال في الحساب فقال جل ثناؤه:"ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً.

ويستمر الكواكبي وبما يستثير المزيد من الدهشة في- مسلسل تحامله على المرأة- محاولاً إضفاء مسحة دينية على أفكاره لمنحها بعض الشرعية فيقول:"وقد أمرت الشريعة برعاية الكفاءة في الزوج، وذلك أيضاً مرحمة بالرجال. وأكثر الأئمة المجتهدين أغفلوا لزوم تحري الكفاءة في جانب المرأة للرجل، وأوجبوا أن يكون هو فقط كفؤاً لها كي لا تهلكه بفخارها وتحكمها. على أن لرعاية الكفاءة في المرأة للرجل أيضاً موجبات عائلية مهمة، منها: التخير للاستسلام والتخير لتربية النسل، وللتساهل في ذلك دخل عظيم في انحلال الأخلاق في المدن، لأن التزوج بمجهولات الأصول أو الأخلاق، أو بسافلات الطباع والعادات، أو بالغريبات جنساً أو الرقيقات، مفاسد شتى. لأن الرجل ينجر طوعاً أو كرهاً لأخلاق زوجته، فإن كانت سافلة يتسفل لا محالة، وإن كانت غريبة بغّضته في أهله وقومه، وجرّته إلى موالاة قومها والتخلق بأخلاقهم. ولا شك أن هذه المفسدة تستحكم في الأولاد أكثر من

◀

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

الأزواج".

في الوقت الذي نتفق فيه مع الكواكبي فيما ذهب إليه من القول بأهمية أخذ مسألة الكفاءة في المرأة للرجل بعين الاعتبار، إلا أننا نجد في خطابه تشدداً مبالغاً به وجمعاً غير مستساغ بين فئات من النساء يصعب الجمع بينهن، فهو يضع "سافلات الطباع والعادات" في سلة واحدة مع "الغريبات جنساً أو الرقيقات"، معتبراً أن في الزواج منهن جميعهن "مفاسد شتى"، وفي هذا ما فيه من مجافاة الحق والابتعاد عن الصواب؛ فلقد تزوج الرسول الكريم (محمد) عليه الصلاة والسلام الذي يجسد لمعاشر المسلمين أسوة حسنة بنص القرآن الكريم من – صفية بنت حيي بن أخطب-- ابنة أحد ألد أعداء المسلمين من اليهود، كما اقترن بـ- مارية القبطية- التي أهداها إليه (النجاشي) ملك الحبشة، فلم تكونا سبباً في تبغيضه عليه السلام في أهله وقومه، أو جره . وحاشاه أن ينقاد إلى ذلك . إلى موالاة قوميهما والتخلق بأخلاقهم!

تعليم المرأة عند الكواكبي:

يسجل للكواكبي حماسه الكبير في دعوته إلى تعليم المرأة، فهو يعد عدم تعليمها سبباً من أسباب انحلال الأخلاق المتفشي في المجتمع، داحضاً وببرهان منطقي متماسك ادعاءات الذين يزعمون أن تعليم المرأة حقيق بالنيل من عفتها، إذ يقول: "إن لانحلال أخلاقنا سبباً مهماً آخر يتعلق بالنساء، وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا، حيث كان يوجد في نسائنا كأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي أخذنا عنها نصف علوم ديننا؛ وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث والمتفقهات، فضلاً عن ألوف من العالمات والشاعرات اللاتي في وجودهن في العهد الأول بدون إنكار، حجة دامغة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون أن جهل النساء أحفظ لعفتهن؛ فضلاً عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون، حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور وأن الجهل يدعو للعفة؛ نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة، ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة. ثم إن ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غني عن البيان...".

هذا، ولا تقتصر آثار عدم الاهتمام بتعليم المرأة عند الكواكبي على المستوى الأخلاقي فحسب، بل إنها تمتد لتطال نظام الحكم نفسه أيضاً؛ فهو يعتبر أن "ترك الاعتناء بتعليم النساء" أحد الأمراض القديمة التي لازمت إدارة الحكومة العثمانية منذ نشأتها وأسهمت في إيصالها إلى مستنقع الاستبداد الذي تتخبط فيه.

ويبدو أن إيمان الكواكبي بأهمية التعليم للمرأة قد حدا به إلى الاهتمام بتعليم بناته اهتماماً قد لا يقل درجة عن اهتمامه بتعليم أبنائه الذكور؛ ففي رسالة موجهة إلى ولديه -أسعد و رشيد- أرسلها إليهما أثناء تجواله في عدد من بلدان شرقي إفريقيا نجده يقول: "لاحظوا مسألة أحمد ومكتبه (أي مدرسته)، وكذلك نظيرة وفاضل (وهؤلاء هم أولاده الصغار) بالإضافة إلى تربيته على يد امرأة متعلمة مثقفة هي خالته (صفية)، ووقوفه على منابع الثقافة الإسلامية المستنيرة التي تحث على تعليم البنات، واطلاعه على أحوال الأمم الغربية التي تعنى بتدريس الإناث، ربما يمكن القول إن عناية الكواكبي بتعليم بناته قد تعمقت بتأثير من الصخب الذي شهده الوطن العربي حول قضية تعليم المرأة، ذلك الصخب الذي ترددت أصداؤه في نفوس الكثير من المفكرين العرب، الذي نرجح أنه لم يبدأ مع صدور كتاب (رفاعة الطهطاوي) الموسوم: (المرشد الأمين للبنات والبنين) عام ١٨٧٢، ولم ينته مع صدور كتابي (قاسم أمين) المعنونين: (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) في عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٠ على التوالي:

ويولي الكواكبي للمرأة دوراً مهماً في تربية الأبناء لا يقل عن أهمية دور الرجل، جاعلاً من عملية التربية عملية متتابعة مستمرة يشترك المجتمع كله وليس الأبوان فحسب في تنفيذها، فيقول: "التربية تربية الجسم وحده إلى سنتين، هي وظيفة الأم أو الحاضنة، ثم تضاف إليها تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة معاً، ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس؛ ثم تأتي تربية القدوة بالأقربين والخلطاء إلى الزواج، وهي وظيفة الصدفة، ثم تأتي تربية المقارنة، وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق.

إن الكواكبي يمثل واحداً من أبرز مفكري النهضة العربية الحديثة ريادة وجدة وتميزاً في مقاربة موضوع الاستبداد والتنظير له ولخطورته وامتداداته بصورة عميقة شاملة، مقارنة بغيره ممن عاصروه من المفكرين العرب وتصدوا للبحث في الموضوع نفسه، غير أن لكل عالم هفوة كما يقال، ويبدو أن هفوة الكواكبي التي يصعب تجاهلها أو اغتفارها تكمن في موقفه الرجعي من المرأة بوجه عام، الذي يتعارض بصورة صارخة مع مجمل خطابه التقدمي المستنير. والواقع أن من الصعب اغتفار مثل تلك الهفوة، بل الخطيئة إذا جاز التعبير، من صاحب طبائع الاستبداد على وجه الخصوص، فليس من المقبول تحت أي ذريعة من الذرائع أن ينزلق مفكر نذر حياته وفكره لمقاومة الاستبداد إلى الوقوع فيه وممارسته ضد المرأة، التي تقف في مجتمعنا العربي في مقدمة الفئات المقموعة المضطهدة، ويشكل وضعها المتعثر المأزوم عقبة جدية في وجه أي مطمح مشروع لنهوض الأمة وتقدمها.

لقد آمن الكواكبي بأهمية تعليم المرأة ولم يدخر وسعاً في الدعوة إلى ذلك وتطبيقه في محيطه العائلي، وهذا يسجل له بكل تأكيد، بيد أنه توقف عند ذلك الحد منسجماً بهذا القدر أو ذاك، مع طرح تقليدي لا يرى ضيراً في تعليم المرأة، شريطة ألا يخرج بها ذلك التعليم في الواقع العملي من محيط بيتها، جسداً وفكراً.

غير أن الكواكبي سرعان ما أخذ من المرأة بشماله . على قلته . ما أعطاه لها بيمينه، فلم يدر بخلده، ولو نظرياً، ضرورة استحضارها عضواً مهماً جديراً بالحضور والمشاركة عندما كان يفكر بتأسيس جمعيته الإصلاحية الافتراضية التي استغرقت صفحات كتابه (أم القرى). وليت الأمر وقف عند هذا الحد من التجاهل والتهميش، فعندما خطرت بباله وقرر استدعاءها لم يفعل ذلك إلا وهو يجرها إلى قفص الاتهام بدعوى ضلوعها في تسبيب التخلف والاستبداد، ملصقاً بها حزمة من التهم المنكرة، التي تجعل منها كائناً طفيلياً مخادعاً قرر أن يعيش عالة على الرجل، لا يتورع عن التحايل وحبك المؤامرات لإخضاع آدم واستغلال سذاجته!

ويبدو أن المؤثرات التقدمية المستنيرة في فكر الكواكبي، متمثلة في ثقافته الدينية المنفتحة، ودعوات إنصاف المرأة في بلدان الغرب والشرق، وبيئته العائلية الودودة التي احتضنت صيغاً راقية من صيغ التفاعل بين الذكور والإناث، يبدو أنها كانت في حالة صراع محتدم مع المؤثرات الرجعية الظلامية في فكره، هذه التي تجسدت في الموروث الثقافي السلبي والتأويلات الدينية المغلوطة المجحفة بحق المرأة. وفيما يظهر، فقد كانت الغلبة . بكل أسف . للمؤثرات المتخلفة الظلامية، ليأتي فكر الكواكبي المتعلق- بالمرأة فكراً مضطرباً مشوشاً مثقلاً بالكثير- مما يمكن اعتباره انحرافاً عن المسار الطبيعي- لفكر الرجل المعادي للاستبداد والمحارب له.

"طبائع الاستبداد" للكواكبي: لا دواء إلا الدولة والدستور

ابراهيم العريس

"أقول وأنا مسلم عربي مضطر للاكتتام، شأن الضعيف الصادع بالأمر، المعلن رأيه تحت سماء الشرق، الراجي اكتفاء المطالعين بالقول عمن قال: وتعرف الحق في ذاته لا في الرجال، انني في سنة ثماني عشرة وثلاثمئة وألف هجرية، هجرت دياري سرحاً في الشرق، فزرت مصر واتخذتها لي مركزاً أرجع إليه مغتنماً عهد الحرية فيها على عهد عزيزها حضرة سمي عم النبي العباس الثاني الناشر لواء الأمن على أكتاف ملكه، فوجدت أفكار سراة القوم في مصر كما هي في سائر الشرق خائضة عباب البحث في المسألة الكبرى، أعني المسألة الاجتماعية في الشرق عموماً وفي المسلمين خصوصاً، انما هم كسائر الباحثين، كل يذهب مذهباً في سبب الانحطاط وفي ما هو الدواء. حيث اني قد تمخض عندي ان أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية..." بهذه العبارات يقدم لفصول كتابه الأساسي، واحداً من كبار مفكري عصر النهضة العربية التي نمت بعد تأسيسها، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، واحدثت في الفكر العربي والإسلامي ثورة واعية لا بد ان تقول اليوم ان من المؤسف كونها لم تنتقل، كما ينبغي، من حيز الفكر الى حيز العمل، ما من شأنه ان يجعل منها، لو كنا منصفين، اندلس أخرى مفقودة من اندلساتنا الكثيرة الضائعة. وهذا المفكر الذي نعنيه هنا هو، بالطبع، عبرالرحمن الكواكبي، السوري الحلبي، الذي قارع السلطنة العثمانية وأعوانها العرب بالحجة والمنطق حتى اضطر للهرب الى مصر، حيث تبعته قوى الظلام وقضت عليه وهو بعد شاب في أوج عطائه، ولم تكتف بذلك، بل أرسلت الى داره في حلب علماء يجمعون كتاباته ويتلفونها.

ومع هذا بقي لنا من نتاج الكواكبي الكثير، ولعل أبرز ما بقي كتابه "طبائع الاستبداد" الذي جاء النص الوارد أعلاه، في مقدمته، وكان حريّاً به ان يعتبر حين نشر ككتاب كامل في بداية القرن العشرين، كتاب المستقبل العربي، لكنه ظل مجرد ترف فكري يقرأه المفكرون ويتجادلون في شأنه، من دون ان يجد طريق أفكاره الى أرض الواقع.

وأفكار "طبائع الاستبداد" تأتي في نصوص واعية واضحة، عبر سلسلة مقالات هي التي شكلت متن الكتاب كان الكواكبي، كما يفيدنا هو على الأقل، بدأ كتابتها وهو بعد في حلب، ثم استكملها وهو في مصر، إذ يقول في المقدمة: "في زيارتي هذه لمصر، نشرت في أشهر جرائدها بعض مقالات سياسية تحت عنوان الاستبداد: ما هو الاستبداد وما تأثيره على الدين، على العلم، على التربية، على الأخلاق، على المجد، على المال؟ الى غير ذلك، ثم في زيارتي الثانية لمصر أحببت تكليف بعض الشبيبة، فوسعت تلك المباحث خصوصاً في الاجتماعيات كالتربية والأخلاق واضفت اليها طرائق التخلص من الاستبداد ونشرت ذلك في كتاب سميته "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"..." ولنذكر هنا، ايضاً ان الكواكبي صدّر كتابه بعبارة"... وهي كلمات حق وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، فقد تذهب غداً بالأوتاد" ووقّع كتابه كما المقالات حين نشرها متفرقة قبل ذلك باسم "الرحالة ك.".

كما نفهم، اذاً، من تقديم الكواكبي، فإن نصوصه هذه تتناول، تحديداً، واحدة من المسائل التي كانت بالفعل مطروحة على العقل العربي. ولئن كان باحثنا الحلبي قد تدخل في نقاش تلك المسائل، فمن الواضح انه شاء لتدخله ان يكون علمياً شاملاً، لا مجرد تدخل ايديولوجي. ومن البيّن في هذا المجال ان الكواكبي وضع جزءاً كبيراً من نصوص الكتاب، استناداً الى عدد من الدراسات والكتب العربية التي كان يقرأها بنهم في حلب. وهو يذكر هذا بكل وضوح، غير ان ما لا يذكره هو تأثره بالعديد من النصوص الايطالية، ولاسيّما منها نصوص المفكر الأشتراكي ماتزيني، التي كان يطلع عليها منقولة الى العربية من طريق اعضاء في جمعيات "الكاربوناري" الاشتراكية الايطالية، وهم اعضاء تشير مصادر عدة منها كتاب لعباس محمود العقاد عن الكواكبي انهم كانوا موجودين وناشطين في حلب في ذلك الحين، وان الكواكبي كان على اتصال بهم. ويبدو انهم هم الذين ساعدوه على الهرب من حلب، وكانت لهم علاقة ما بمحاولة اغتيال قنصل ايطاليا في المدينة، وهي محاولة جرت غير بعيد من مقر الكواكبي واتهم هذا بالضلوع فيها. وقد يزيد من حدة التكهنات عن علاقة الكواكبي بالايطاليين الاشتراكيين، انه حين قام بجولته الشهيرة في مناطق الجنوب العربي والخليج، قام بها على متن سفينة ايطالية يقال حتى انها سفينة عسكرية! ومهما يكن من الأمر فإن الجانب التاريخي والتحليلي في كتاب "طبائع الاستبداد" يضعنا مباشرة على تماس مع فكر ماتزيني ١٨٠٥-١٨٧٢.

> المهم ان الكواكبي في كتابه الغريب والمجدّد، في ذلك الحين، كان همه الأساسي ان يخوض المعركة ضد الاستبداد الذي كان يسم تلك الحقبة من الحكم التركي للبلاد العربية. والحال ان قراءة "طبائع الاستبداد" توضح لنا كيف ان الكواكبي، وبحسب تفسير البيرت حوراني في "الفكر العربي في عصر النهضة" ينطلق في آرائه من فكرة انحطاط الاسلام مفسراً هذا الانحطاط أولاً "التفسير المألوف اذ يعزوه الى قيام البدع ولا سيما الصوفية المتطرفة الغريبة عن روح الإسلام، والى التقليد الأعمى ونكران حقوق العقل، والعجز عن التمييز بين الجوهري والعرضي في الدين" غير ان الكواكبي – بحسب تفسير حوراني – اضاف الى ذلك شيئاً آخر كان ذكره الأفغاني ومحمد عبده، وهو ان الحكام المسلمين المتأخرين عمدوا الى تشجيع روح التقليد الأعمى الغاشمة والاستسلام لفكرة الآخرة من أجل تدعيم سلطتهم المطلقة. ولقد ألح الكواكبي على هذا العامل المؤدي بحد ذاته الى الفساد والانحطاط قائلاً ان "الحكام المستبدين لم يكتفوا في عملهم الشرير بتأييد الانحراف عن الدين الصحيح، بل افسدوا المجتمع بكامله "فـ" الدولة العادلة التي فيها يحقق البشر غايتهم من الوجود هي تلك التي يعيش الفرد فيها حراً، ويخدم المجتمع بحرية، وتسهر الحكومة على هذه الحرية، وتكون الحكومة نفسها خاضعة لرقابة الشعب" ولنلاحظ هنا ان ماتزيني كان يستخدم في كلامه عن الحكم الجمهوري هذه العبارات نفسها. وبالنسبة الى الكواكبي فإن "هذا ما كانت عليه الدولة الاسلامية الحق. اما الدولة المستبدة فنقيض ذلك تماماً: فهي تتعدى على حقوق المواطنين، وتبقيهم جهلاء، كي تبقيهم خانعين، وتنكر عليهم حقهم في القيام بدور فعال في الحياة، نتفهم، آخر الأمر، العلاقة الروحية بين الحكام والمحكومين، كما بين المواطنين انفسهم، وتشوّه كيان الفرد الخلقي بالقضاء على الشجاعة والنزاهة وشعور الانتماء الديني والقومي على السواء". فما الحل؟ للإجابة عن هذا السؤال يقول الكواكبي في الفصل الأخير من كتابه بعنوان "الاستبداد والتخلّص منه": ليست لنا مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعي، ولا برهان اقوى من الاستقراء" وانطلاقا من هذا الاستقراء يستعرض الكواكبي مراحل تطور عيش الانسان من "دور الافتراس" الى دور "ترقّى فيه قسم من الانسان الى التصرف اما في المادة وإما في النظريات... وفي خضم ذلك عاشت كل الأمم "في تقلبات سياسية على سبيل التجريب" وبحسب "تغلب احزاب الاجتهاد أو رجال الاستبداد"، حتى "جاء الزمن الاخير فجال فيه انسان الغرب جولة المغوار، فقرر بعض قواعد اساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب وحصحص فيها الحق اليقين فأصبحت تعد من المقررات الاجماعية عند الأمم الشرقية، ولا يعارض ذلك كون هذه الأمم لا تزال منقسمة الى احزاب سياسية يختلفون شيعاً، لأن اختلافهم هو في تطبيق تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية".

فهل نحن في حاجة الى أكثر من هذا لكي نرى في هذا الكتاب الاستثنائي وصية سياسية من الكواكبي؟ فالكواكبي الذي ولد لأسرة من الأشراف المثقفين في حلب في عام ١٨٥٥، سيموت مقتولاً بالسم على الأرجح في ١٤ حزيران/ يونيو ١٩٠٢ في القاهرة، أي في العام نفسه الذي انتهى فيه من نشر مقالات هذا الكتاب على حلقات في صحيفة "المؤيد" المصرية لصاحبها علي يوسف، وكان نشر قبله كتابه المهم الآخر "أم القرى"... وهما الكتابان الأساسيان اللذان تركهما لنا، اضافة الى عدد كبير من المقالات والرسائل، الى جانب النصوص الضائعة.

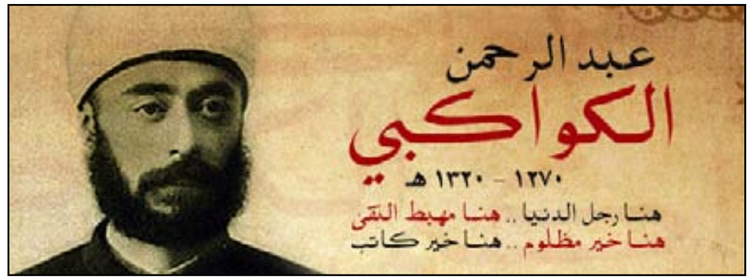

عن صحيفة الحياة اللندنية

وقعت في العالم العربي خلال المرحلة الأخيرة من الحقبة العثمانية، وتحديداً خلال حكم السلطان عبدالحميد، اغتيالات سياسية عدة، لعل أبرزها خنق الصدر الأعظم ـ رئيس الوزراء ـ مدحت باشا في جدة، وتسميم المصلح عبدالرحمن الكواكبي في القاهرة.

فمن هما المغتالان؟ ولماذا جرى اغتيالهما؟ وكيف تمت عمليتا الاغتيال؟

يحتلّ مدحت باشا (١٨٢٢ـ١٨٨٤) رأس لائحة المصلحين في تاريخ تركيا الحديث، ويلقّب بـ"أبي الدستور"العثماني. رسم مبادئ الدستور بمعاونة عالمين اجتماعيين أحدهما اللبناني خليل غانم، خلال توليه الصدارة العظمى بين ١٨٧٢ ـ ١٨٧٧ عزله السلطان عبدالعزيز ونفاه، ولكنه عاد الى الاستانة بعد تسلّم عبدالحميد زمام السلطنة. وسرعان ما عيّن والياً على بلاد الشام في أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر.

خيري العمري
باحث راحل

عبدالرحمن الكواكبي من ضحايا السلطان الأحمر

وفور تولّيه منصبه الجديد، شرع في إصلاح الولاية بدءاً بتوفير قدر كبير من الديموقراطية، خصوصاً حرية الصحافة. وخلال حكمه، انخفضت نسبة المديح للسلطان ومأموريه في صحف بيروت، وبرزت لأول مرة افتتاحيات ومقالات نقدية؛ وعلى سبيل المثال، فقد نشر المعلم بطرس البستاني في جريدته"الجنة"سلسلة مقالات انتقد فيها حكّام الولاية وعموم السلطنة، وضمّنها الخطوط العريضة للإصلاح والنهوض. وبطبيعة الحال، بات جميع الوطنيين المصلحين أمثال الشيخ اسكندر العازار والأمير عبدالقادر الجزائري وابراهيم اليازجي والشيخ يوسف الأسير، إضافة الى المعلم بطرس البستاني، أصدقاء للوالي، بل وشركاء له في ورشة النهوض بالولاية. أكثر من ذلك، فقد ظهرت في عهده منشورات سرية ثورية على جدران الساحات العامة في بيروت والقدس وحلب ودمشق وطرابلس، تدعو الى الحرية والاستقلال ووضع حدّ للفساد والاستبداد. وكان مصدر المنشورات جمعية سرية بزعامة الشيخ اسكندر العازار في بيروت والأمير عبدالقادر الجزائري في دمشق والعديد من الوطنيين أمثال أديب اسحق وابراهيم اليازجي الذي كان يطعّم المنشورات بأبيات ثورية هي جزء من قصائده الوطنية، خصوصاً قصيدته"تنبهوا واستفيقوا أيها العرب". ولم يكن مدحت باشا غائباً عن الجمعية ولا حتى رافضاً لها. وهنا يبرز رأيان، أحدهما يؤكد أن الوالي كان ضالعاً في المشروع الثوري، والآخر يرجّح أنه شجّع أركان الجمعية سراً من غير أن يكون عضواً أو مسؤولاً فيها. ولكن السلطان عبدالحميد الذي كان معادياً للديموقراطية والحرية والعدالة والنزاهة تبنّى الرأي الأول، فاستدعى الوالي الى الاستانة وعزله، ثم أودعه السجن في مدينة جدة التي كانت تابعة للسلطنة، مع بعض معاونيه. وبالطبع لم يكتف السلطان الأحمر بذلك، بل أمر بقتله. وهنا، لا بأس من استعادة مشهد وصول مدحت ورفيقيه الى سجن جدة وكيفية اغتياله.

أحدثكم

يقول أحد الذين شاهدوا مدحت باشا إثر وصوله الى جدة واشتركوا في خنقه: "أحدثكم بما جرى لمدحت باشا وأنا أرتجف خوفاً من تذكار تلك الليلة وذلك الإثم الفظيع وأسأل الله أن يغفر لي ذنباً ارتكبته مكرهاً". أضاف في شهادته التي نشرها حرفياً الصحافي اللبناني المتمصّر سليم سركيس في كتابه"سرّ مملكة": "كان خارج البلدة غاصاً بالناس والعساكر الذين أتوا ليتفرجوا على المغضوب عليهم.. ولم نلبث طويلاً حتى نظرنا من بعد جمالاً قادمة يعلوها ثلاثة من الشيوخ، وكان أولهم هرماً بيّضت لحيته الأيام وسوّدت وجهه حرارة الشمس المحرقة نحيلاً أنهكته الأمراض، تدل هيئته على شرف عظيم وإن يكن محاطاً بالجند لحراسته كالجاني الأثيم. فسألت عن اسمه فقيل لي هذا مدحت باشا فخر الدولة التركية غضب عليه مولاه فأرسله منفياً". وكان أحد الرجلين المرافقين "محمود جلال الدين باشا" والثاني "شيخ الإسلام".

أضاف الشاهد، وهو برتبة جاويش، أن ضابطاً كبيراً وصل من الاستانة الى جدة بعد أيام"وكان طويل القامة قوي الجسم اسمه جركس سليمان بك". وفي اليوم التالي لوصوله استنفر الجاويش مع بعض الأنفار، واتجهوا نحو السجن برفقة ثلاثة ضباط على رأسهم جركس سليمان بك. وخلال الرحلة من الثكنة الى السجن"سمعت أحد رفاقي يقول: سنخنق هذه الليلة البشاوات الخونة". ولدى وصول الفرقة الى السجن، انتقى قائدها خمسة، كان الشاهد أحدهم، إضافة الى جاويش من أصل سوداني"لم يكن أقوى وأشجع منه في فرقتنا".

وختم الشاهد الذي اشترك في جريمة الخنق، قائلاً أن مدحت باشا قال لهم لحظة اقتحموا قاووشه: "أولادي ماذا تريدون؟"، وكان الجواب أن"تقدم حيدر جاويش ومسك هذا الشيخ الضعيف من كتفيه وضغط عليه بقوة وحشية". وبعد أن ساهم سائر أعضاء فرقة الموت بضرب السجين البريء، "صعد حيدر جاويش على ذلك المسكين وداس برجله على صدره، فظننت أنه أغمي عليه، إذ لم يصرخ. وعرفت انتهاء الجريمة. فنضرت، وإذا أمامي مدحت باشا الذي كان يهتز له العالم العثماني، ممداً على الثرى بغير حراك".

الكواكبي

ولنقلب الصفحة من أجل تسليط ضوء خاطف على مصلح وشهيد آخر هو الحلبي عبدالرحمن الكواكبي المولود في حلب عام ١٨٥٥ والمتوفي عام ١٩٠٢. بدأ احمرار عيني السلطة العثمانية من الكواكبي منذ صدور العدد الثاني من جريدته الحلبية"الشهباء"في ١٧ أيار ١٨٧٧. كانت الحرب في أوجها بين السلطنة العثمانية وروسيا القيصرية. وفُتح باب التطوع في كل الولايات العثمانية ومنها ولاية حلب. وعلى الرغم من أن كفة الانتصار في ميزان الحرب كانت مائلة لصالح موسكو، فإن الضابط التركي الذي كان يسجّل أسماء المتطوعين في مدينة حلب قد رفض تسجيل ستة متطوعين من الأرمن الحلبيّين لأسباب طائفية.

نشر الكواكبي الخبر في الصفحة الرابعة من"الشهباء"وذيّله بالتعليق الآتي: "كلما ألزمتنا ظروف الأحوال بالتشبث بأسباب علاقات الود والاتحاد بين سائر التبعة العثمانية، تظهر هكذا حركات تقضي بضد ذلك لغايات بعض مآمير لا يكترثون بلوازم الأوقات. فاللازم على أولياء الأمور أن يصدّوا هكذا مأمورين عن غاياتهم".

وبدلاً من أن يُعاقب المأمور، عوقب الكواكبي. فعطّل الوالي باكورة جرائد حلب أشهراً عدة، وأحيل الكواكبي على المحاكمة. ومنذ ذلك التاريخ (١٨٧٧) وضع اسم الكواكبي على اللائحة السوداء في قصر يلدز. فقد عُطلت"الشهباء"ثلاث مرات خلال عامين، وكان التعطيل نهائياً في المرة الثالثة. وهكذا، لم يصدر من الجريدة سوى ١٦ عدداً بسبب طول مدة التعطيل. ولم يكن حظ جريدة الكواكبي الثانية"اعتدال"أفضل من حظ شقيقتها الكبرى. فقد عطّلها الوالي نهائياً بعد صدور العدد العاشر. وبالطبع، يكمن سر التعطيل في أن الكواكبي لا يعرف الاعتدال حين يشاهد الفساد والاستبداد في الإدارة والقضاء والسياسة، ومن السلطان في اسطمبول الى أصغر مأمور في ولاية حلب.

واستمر تلفيق أخطر التهم بحق الكواكبي. ففي أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر، اتهم المصلح الحلبي بالعمالة لدولة أجنبية، فاعتقل وحوكم وحكم عليه بالإعدام. استأنف الحكم فطلب محاكمته في بيروت، فاستجيب لطلبه. وكان حظه كبيراً، لأن القاضي التركي في المدينة الملقّبة بـ"أم الشرائع"كان من القضاة القلّة الذين يصرّون على ممارسة النزاهة والعدالة. لذلك، خرج الكواكبي من محكمة بيروت بريئاً. وتضاعف نصره في حلب بسبب تزامن صدور الحكم بالبراءة وصدور قرار بعزل الوالي.

ولكن الوالي المعزول لم يكن أسوأ من الوالي الجديد جميل باشا المدعوم من والده نامق باشا مستشار السلطان للشؤون الدينية. فلم يتردد هذا الوالي من اعتقال جميع وطنيي حلب في العام ١٨٨٥ وفي طليعتهم الكواكبي. وكان يمكن أن ينجح في إبقائهم داخل السجن لولا التوقيت الخاطئ لعملية الاعتقال. فقد تزامنت الاتهامات والاعتقالات، مع معركة كسر عظم بين الوالي والسفير البريطاني في حلب. ولما كانت بريطانيا آنذاك صديقة للباب العالي، وأقوى دولة في العالم، فإن العام ١٨٨٦ شهد نقل جميل باشا من ولاية حلب الى ولاية بغداد، وإطلاق الكواكبي وسائر المعتقلين المظلومين.

بقي الكواكبي مصراً على البقاء في حلب وتوجيه الانتقادات لأهل الحكم في الولاية والسلطنة، على الرغم من تواصل مضايقته من الوالي وسائر المأمورين. والكواكبي في إصراره يتميّز من معظم الوطنيين الذين آثروا مغادرة أراضي السلطنة من أجل استئناف جهادهم السياسي. ولكنه اضطر في العام ١٨٩٨ الى مغادرة حلب في جنح الظلام للانتقال الى مصر التي كانت ملاذاً لمئات"الشوام"الذين لجأوا إليها لإصدار الصحف وتأسيس الأحزاب ومواصلة الكفاح. ومن العوامل التي دفعته الى الإقامة الموقتة في القاهرة، استئناف إصدار الصحف، وطباعة مخطوطة كتاب"أم القرى"، والقيام برحلات استطلاعية في بلدان عربية عدة.

وتمكن خلال فترة قصيرة من تحقيق بعض ما خططه له، فأصدر كتاب"أم القرى"المتمحور على الإصلاح الديني. ثم ألحقه بكتاب آخر وهو"طبائع الاستبداد"المتمحور على الإصلاح السياسي. وقام بأكثر من رحلة الى الصومال واليمن والسعودية وغيرها. وبدأ يصدر جريدته الثالثة"العرب"حيث ظهر العدد الأول منها في غرة أيلول ١٩٠٠. وكانت المفاجأة غير السارة. فقد بادرت السلطة في مصر الى تعطيلها بصورة نهائية بعد العدد الثالث. وسرّ المفاجأة أن الكواكبي كان عالماً بوجود تناقض بين خديوي مصر والسلطان عبدالحميد، وكان من ثمار التناقض أن الخديوي استضاف الكواكبي في قصره أكثر من مرة وأبدى ارتياحه لكتاباته في الصحف، خصوصاً في"المؤيد"لصاحبها الشيخ علي يوسف، إضافة الى كتابيه"طبائع الاستبداد"و"أم القرى".

وعلى الرغم من وضوح الرسالة التي تلقاها نتيجة تعطيل جريدة"العرب"، فقد بقي الكواكبي في مصر، ولم يعدّل من نتاجه الفكري والصحافي، إضافة الى اتصالاته اليومية ببعض الوطنيين الشوام الذين كان يلتقيهم في مقهى"سبلندد بار"وفي طليعتهم رفيق العظم ومحمد كردعلي وابراهيم سليم النجار وعبدالمسيح الإنطاكي. أما الإمام رشيدمحمد رضا، فلم يكن من عارفي الكواكبي ولا من أصدقائه، في بادئ الأمر، بل هو لم يتردد في اتهامه له بمعاداة الإسلام في سياق ردّه عليه في مجلته"المنار"إثر نشر الكواكبي لمقال كبير في جريدة"المقطم"عام ١٨٩٩ حيث أبدى موافقته على مبدأ الفصل بين الدين والدولة. وردّ الكواكبي على الردّ، منوّهاً بأن رضا من شمالي لبنان (القلمون) ومؤكداً أن بعض ما ورد في رده كان يمكن أن يدفع بالسلطان الى رميه في مياه البوسفور، لو لم يكن مقيماً في القاهرة.

وحين علم رضا فيما بعد أن"مسلم حر الأفكار"الذي توّج مقال"المقطم"هو اسم مستعار لعبدالرحمن الكواكبي مؤلف كتاب"أم القرى"، لم يكتف بتحويل العداوة الى صداقة، بل بدأ ينشر كتاب"أم القرى"على حلقات في مجلّته"المنار". وعندما وصله نبأ موت الكواكبي، نشر الى جانب إحدى الحلقات، رثاء أكد فيه على عظمة الفقيد، ونوّه ببعض الخلافات، وفي طليعتها اعتقاد الكواكبي بالفصل بين السلطتين الدينية والسياسية.

الجدير بالذكر أن الكواكبي الذي كان في السابعة والأربعين ويتمتع بصحة جيدة، مرّ، كعادته، على مقهى"سبلندد بار"بصحبة ابنه. ارتشف فنجان القهوة العربية ثم غادر الى منزله وسرعان ما شعر بألم حاد في معدته، ثم فارق الحياة قبل أن يصل الطبيب بصحبة ابنه.

وبسرعة، أمر الخديوي بإقامة مأتم للفقيد على مدى ثلاثة أيام، على أن يسدد القصر نفقاته. وأصدر الطبيب المكلّف من السلطة بياناً أكد فيه أن الكواكبي مات إثر نوبة قلبية. ولكن أصدقاء الكواكبي في المقهى السياسي، لمّحوا الى إمكانية تسميمه. ورووا ما أخبرهم به الكواكبي قبل أيام، وهو أنه دُعي الى الاسكندرية لمقابلة الخديوي. وهناك، طلب منه ملك مصر مرافقته الى اسطمبول ووضع حد لخلافه مع السلطان ونظامه الاستبدادي الفاسد، بعد أن تصالح هو مع عبدالحميد. استمهله الكواكبي للتفكير في الأمر. ثم ودّعه واتصل بأصدقائه ووضعهم في صورة الزيارة، وأبدى لهم عدم موافقته على تلبية دعوة الخديوي. وعندما أبلغ القصر جوابه النهائي، مات مسموماً. ولعل أغرب ما في موته، أن الذي تولّى اغتياله قد مشى في جنازته.

عن كتاب قراءات في التاريخ المعاصر/ خيري العمري/ بغداد ١٩٨٢

خطاب عبدالرحمن الكواكبي

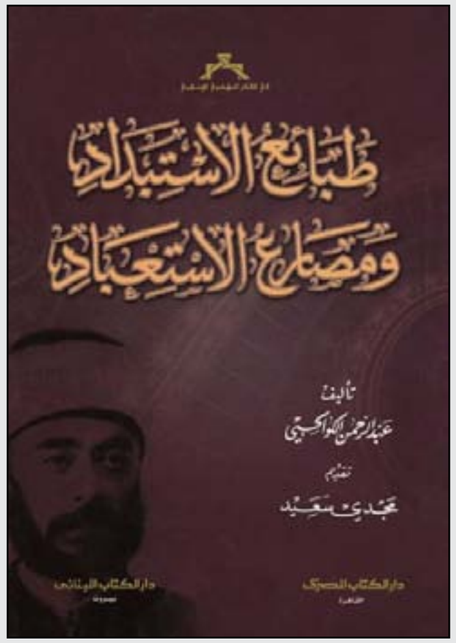

شاكر فريد حسن

عبد الرحمن الكواكبي من ممثلي التيار والاتجاه الاسلامي التنويري والطليعة المثقفة الواعية والشريحة النيّرة، التي سعت الى تلمس وتشخيص الداء في العطب الاجتماعي، واصطدمت أفكارها التجديدية ومعارفها العلمية وتطلعاتها الثورية نحو الحرية والديمقراطية بميراث الأمية والتخلف والاستبداد.

كان الكواكبي طوال حياته داعية للخير وصلاح الأمة ووظف قلمه وفكره لخدمة الوطن، غير مبال بما ينفقه في هذا السبيل، فاهتم بتنوير الناس والرقي بالحياة الشعبيّة، ورفع مشعل الدعوة الى العلم ومقاومة الأوهام والخرافات والخزعبلات وطالب بتحرير المرأة لتكون شريكة فعالة في بناء الوطن الكريم والمجتمع الانساني الحر والديمقراطي.

ضمّن الكواكبي كتبه تحليلاً دقيقاً وعميقاً للأمراض والأوبئة الاجتماعية والسياسية، وشن حملات شديدة وعنيفة على السلطة العثمانية القمعية، ودعا الى الحرية السياسية واحترام النهج العقلاني في التفكير، والى الكفاح السياسي المنظم ضد السيطرة الاستبدادية التركية والاستعمارية الغربية.

وضع الكواكبي عدداً من الاثار المهمة والجليلة المكرسة للحياة والأوضاع الاجتماعية والسياسية في الدولة العثمانية منها: "طبائع الاستبداد" و"أم القرى".

أدرك الكواكبي بحسه وفكره وعقله مدى الظلم والغبن والاجحاف والقهر والاستبداد الذي يعيشه السواد الأعظم من الناس، لذا عمل على انهاض الهمم وتحرير العرائض والشكاوى بعد أن اغلقت صحفه التي أصدرها في حلب(الشهباء والاعتدال وفرات) فطاردته السلطة العثمانية وزجت به في غياهب السجن. ودفعته هذه التجارب الى التأمل في طبيعة المستبد والعلاقة بينه وبين الشعب المقموع، ورأى ان انحطاط الأمة وتدهور المجتمعات الشرقية والاسلامية سببه ومرده غياب الحرية والديمقراطية وسيطرة القمع والاستبداد السياسي والفكري، وان البلسم الشافي والدواء الناجع له هو الشورى الدستورية.

ويختلف الخطاب التنويري لعبد الرحمن الكواكبي عن خطاب معاصريه من رجالات الدين وشيوخ الاسلام عن وعي الذات العربية لدى محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي والبحث عن العلاقة بين الشرق والغرب والاستعاضة عنها بمعالجة العلاقة بين الأتراك والعرب بالأساس.

استطاع عبدالرحمن الكواكبي التغلغل والغوص في عمق الظواهر السلبية في المجتمع الاسلامي والعربي ومناقشتها وتحليلها بروية ووفق المعتقدات والمفاهيم والأفكار التنويرية، التي امن بها واستقاها من الثقافة والحضارة الغربية، وأسهم في بلورة فكر جديد ينسجم مع طبيعة ومتطلبات المرحلة التي عاش فيها واستشراق أفق ومستقبل الفكر العربي الناهض. وغني عن القول أن الكواكبي، وبحق، من أعظم رجالات الحرية في النهضة العربية المعاصرة وقد اغنى بمنهجه العقلي ونقاشاته وفكره تراثنا الفلسفي والفكري العربي.

عبد الرحمن الكواكبي..
جدلية الاستبداد والتغيير

محمد فاضل

عندما ينظر البعض إلى عبدالرحمن الكواكبي، مؤلف كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، على أنه مجرد إصلاحي حائر قذفته أمواج القرن التاسع عشر إلى شواطئ الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فإنه بذلك ينسى عن قصد أو غير قصد أن هذا الكواكبي كان فوتوغرافيا محترفا لكن من النوع الذي يصوّر المستقبل لا اللحظة الراهنة! وحقا، إن في «طبائع الاستبداد" ما يُشبه الألبوم الذي يجمع تاريخ المنطقة العربية، في العصر الحديث.

مفردة «استبداد" تهيمن على قلم الكواكبي، تتوزع كتابه فصولا وأبوابا وأقساما ومقاطع. ذلك أنها كانت مستمدة من واقع مرير بعيد يفصلنا عنه أكثر من قرن من الزمان، سقطت فيه إمبراطوريات وولدت فيه إمبراطوريات، إلا أن ما لم يطرأ عليه تعديل جوهري هو الاستبداد الذي عرّفه الكواكبي بأنه «غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة»، أو في تعريفه الثاني للاستبداد بأنه «صفة الحكومات المطلقة العنان فعلا أو حكما التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين»، حيث لا يزال تعريفه صالحا في عالمنا العربي اليوم، وهو الذي يغلي في ربيعه القاسي محاولا الفكاك من هذا الأسر الوجودي الراسخ. ولا شيء يفسر الحال الذي وصل إليه بعض العالم العربي اليوم، من عنف مقترن بالثورة، أو من دمار مقترن بالتغيير، إلا ما عبّر عنه الكواكبي في فقرات كتابه، وما خطه قلمه من ربط ما بين الاستبداد والتخلف، أو الاستبداد والهزيمة، إلى الدرجة التي يقول فيها «..وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفل، بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور، وإذا ألزمت بالحرية تشقى وربما تفنى كالبهائم إذا أطلق سراحها، وعندئذ يصير الاستبداد كالعَلَق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها». ولربما كان الكواكبي هو أول من أشار إلى تلك العلاقة الوشيجة والمرعبة داخل الطبقات التي تشكل الحياة السياسية والاجتماعية التي تأسست في جدلية الاستبداد والتغيير.

ولد الكواكبي عام ١٨٥٥ في مدينة حلب السورية، وتوفيت والدته وهو في الخامسة من عمره. وعرف عنه الإلمام باللغة التركية واللغة الفارسية. وتنقل في مناصب الدولة العثمانية، وربما هذا ما منحه دراية كافية بآليات الاستبداد التي يعرضها في كتابه نظرا وتجربة. أصدر الكواكبي جريدة «الشهباء" عام ١٢٩٦ هجريا، والتي كانت الجريدة الأولى لهذه المدينة. وبعد أن تم إيقاف «الشهباء" بأمر من الوالي العثماني، اصدر جريدة «الاعتدال" التي نالها النصيب ذاته من المنع كسابقتها. وبعد التضييق الذي تعرض له الكواكبي عبر مجموعة المحاكمات والتهم الجزافية التي كانت تنهال عليه من الجهات الرسمية كالعمل على قلب نظام الحكم والاتصال بجهات خارجية، أشار جمال الدين الأفغاني عليه بالمجيء إلى مصر، ونزل عند نصيحة الأفغاني فغادر إلى مصر عام ١٨٩٩، وتعرف إلى أدبائها ومفكريها، ونشر بعضا من نظره عن الاستبداد في صحفها، فاشتهر هناك وأصبح قريبا من نخبتها وقتذاك، ولعل أشهرهم الشيخ محمد رشيد رضا، الأخير الذي جعلته الأقدار القاسية طرفا في جلسة على مقهى «يلدز" أو اسطنبول، مع الكواكبي، حيث تم دس السم في فنجان قهوة الكواكبي التي يفضلها مُرّة، فكانت الأكثر مرارة بل بطعم العلقم، فلفظ أنفاسه الأخيرة قبيل صلاة الفجر بقليل. فرثاه رضا بكثير من التمجيد والتعظيم قائلا «أصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي، وعالم عامل من علماء العمران، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري ألا وهو السائح الشهير والرحالة الخبير السيد الشيخ عبد الرحمن الكواكبي الحلبي، مؤلف كتاب (طبائع الاستبداد) وصاحب سجل جمعية أم القرى الملقب فيه بالسيد الفراتي».

توفي الكواكبي في زمن الخديو عباس حلمي الذي كان يقربه منه ويكرم وفادته، وقد خصه بجنازة كبيرة. ودفن السيد الفراتي عند جبل المقطم وعلى قبره بيتان شعريان رثاه بهما الشاعر الكبير حافظ إبراهيم:

«هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا
عليه فهذا القبر قبر الكواكبي».

يحذر الكواكبي من خطورة أن يأتي الاستبداد من «حكومة منتخبة» لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد.. وقد يكون عند الاتفاق أضر من استبداد الفرد.

ولم يعرف مَن الذي أمر بدس السم له والتخلص منه، فقد تعدد الراغبون في إزاحته عن المشهد، على ما تقول حفيدته «ضحى»، حيث كان له منافسون في حلب السورية أرادوا أن يسلبوه لقب نقيب الأشراف الذي كان الكواكبي آخر حامل له. وتضيف أن له أعداءً في الدولة العثمانية أيضا.

المراقبة الشديدة

إن الاحتقال غير الفاحص للمفاهيم، ومنها مفهوم الديمقراطية، وسواه، بطبيعة الحال، لم يكن ليمنع الكواكبي من تمحيص جدواه في النتيجة، فيؤكد أن الاستبداد الذي يتميز به الحاكم «الفرد المطلق" يمكن أن يتأتى حتى من طريق «الحاكم المنتخب متى كان غير مسؤول». ذلك أن وعي الكواكبي الإصلاحي يربط الأخلاق الفردية بالنظام السياسي، وبذلك لا يكون النظام السياسي المجرد هو الحل السحري للمعضلات ما دام المسؤول لم يكن مسؤولا من داخل نفسه. بل إنه يحذر من خطورة أن يأتي الاستبداد من «حكومة منتخبة» لأن «الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد.. وقد يكون عند الاتفاق أضر من استبداد الفرد». ويرى الحل الأمثل في «المراقبة الشديدة» للحكومات كي لا يتم وصفها بالاستبداد.

كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" للكواكبي

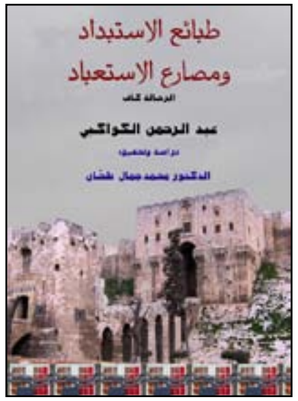

يربط الكواكبي ما بين الفكر والحرية، في تنظيم مثالي لحياة الأفراد في بيئة تضمن كرامتهم وحياتهم، ويعطي لـ«علوم الحياة" دورا مفصليا في إحساس الأفراد بقيمتهم الاعتبارية.

يستخدم الكواكبي مفردة الاستبداد، كمفتاح مزدوج الهوية، فهو يشير إلى أداء السلطات السياسية، وكذلك يشير إلى طبيعة المجتمعات التي تنتشر فيها تلك النوعية المفرطة من السيطرة على الناس. ولو أن السيد الفراتي يميل إلى تحميل الاستبداد الدور الأكبر، وأحيانا الوحيد، إلا أنه وفي معرض تقريظه لآليات الاستبداد في نظام الحكم يقول قاطعا «المستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى: (كما تكونوا يولى عليكم)..». وربما لهذا يعيد وصف الاستبداد بأنه «أعظم بلاء يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين».

ويربط الكواكبي ما بين الفكر والحرية، في تنظيم مثالي لحياة الأفراد في بيئة تضمن كرامتهم كما تضمن لهم حياتهم، ويعطي لـ«علوم الحياة" دورا مفصليا في إحساس الأفراد بقيمتهم الاعتبارية. ويرى أن الاستبداد يتناقض والتعليم، لا بل إن المستبد يكره الفلسفة والحكمة و«ترتعد فرائصه" من «الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم.. ونحو ذلك من العلوم التي تكبّر النفوس وتوسّع العقول وتعرّف الإنسان ما هي حقوقه». وبسبب تناقض المصالح ما بين الاستبداد والعلم فإن هناك حربا دائمة بينهما فـ«يسعى العلماء في تنوير العقول ويجتهد المستبد في إطفاء نورها». ونظرا لكون الصراع هو في إقناع جموع الناس والتجاذب على اكتسابهم، ويسميهم الكواكبي بـ«العوام»، فإنهم «إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا». وهذا الاستسلام الناتج من الخوف هو الذي يمنح المستبد قوة لا منظورة تتكثف في نفوسهم، ولهذا اعتبر الكواكبي أن «العوام هم قوة المستبد».

يعطي الكواكبي للاستبداد دورا محوريا في رسم ملامح المجتمعات والتأثير في شخصية الأفراد، رغم إشارته التي لمحنا إليها سابقا من ارتباط الاستبداد بالمجتمع كالعلق الذي لا يموت إلا بموت صاحبه الذي تعلق عليه، مما يعطي صورة قاتمة للغاية لإمكانيات التغيير، إلا أنه لا ينفك مشيرا إلى الاستبداد كفاعل أصلي لهذه الصورة المشوهة التي تصل إليها المجتمعات المصابة به، فلا يضرب التشوه رأس السلطة، بطبيعة الحال، بل كل فروع المجتمع «الحكومة المستبدة تكون مستبدة في كل فروعها: من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفرّاش إلى كناس الشوارع». وربما هي مسألة يراها الكثير في العالم العربي لا تزال راهنة في مؤسسات هنا وهناك، حتى لدى سائقي التاكسي والموظفين الصغار وبائعي الألبسة وعمال المطاعم، حيث تظهر أسلوبية تعاط عدائي مع الناس مجهولة السبب. ويظهر خضوع الناس للاستبداد ضمن آلية مضمرة عصية على التفكيك تجعل من أصغر موظف أو صاحب صنعة صورة من نشاط استبدادي يبدأ من الأعلى للأدنى وصولا إلى المرأة، كما يشير الكواكبي نفسه، لأن الخاضع للاستبداد يسكت على القوي ويستشرس على المرأة الضعيفة مكسورة الجناح. وبسبب هذه الآلية الغامضة من التعاملات بين الناس وصعوبة جعل التنافس مبدأ ما بين الكل فإن الخراب يصل إلى الناس فجأة من دون إنذار، ذلك أنه «من طبائع الاستبداد أنه لا يظهر فيه أثر فقر الأمة ظهورًا بيّنا إلا فجأة».

المدارس تحارب الجريمة لا السجون!

في باب بليغ وعلى درجة من الروعة لا توصف، يفنّد الكواكبي بعض الأخلاقيات التي تسود في مجتمعات تخضع لسلطات استبدادية، والمؤلف بذلك سطر المحاولة الأولى والأشهر لنقد الجماعة، وليس فقط النظام أو الحاكم. وهي مسألة جوهرية لطالما نفتقدها اليوم حتى بعد مرور أكثر من قرن على الكتاب. فيشير الإصلاحي العميق إلى جملة من القناعات التي يكررها العامة من الناس فلنا منهم أنهم يمارسون حكمة رفيعة في حيواتهم، ليتبين الأمر بأن هذه القناعات ليست أكثر من ممارسة سرية لنظام استبدادي تغلل في الألسنة ووعي المتكلمين. فتنقلب الحقائق ويعتقد الناس أن «طالب الحق فاجر، وتارك حقه مطيع، والمشتكي المتظلم مفسد، والنبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين صالح أمين». ومن أشهر المقولات التي يكشفها الكواكبي، تلك التي لا تزال مشتهرة إلى الآن وفاعلة في ثقافة الشارع العربي من مثل «إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب»، ويعتبر أن مثل هذه الحكمة ليست أكثر من قلب للحقائق تزور حقيقة الفعل وترفع شأن الخضوع والرضوخ.

برغم أهمية كل التفاصيل التي ذكرها الكواكبي عن مظاهر الاستبداد وآلية عمله، فإن وعي الكواكبي بالتغيير يتسم بأكبر قدر من الحكمة والنظر الثاقب، كما لو أنه يحدثنا منذ أكثر من قرن مما يمر به العالم العربي الآن. فالسيد الفراتي، برغم حربه المفتوحة على الاستبداد فإنه لا يجد من الأفضل استئصاله بالعنف، بل بالأناة والتدرج «الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم بالأناة والتدرج»، كيلا تكون «فتنة تحصد الناس حصدا». فهنالك مخاوف من أن يؤدي هذا العنف، أو التغيير غير المخطط له لاستحضار «مستبد آخر تتوسم فيه أنه أقوى شوكة من الأول، فلا تستفيد شيئا إنما تستبدل مرضا مزمنا بمرض مزمن». ولهذا يؤكد الكواكبي في سبق تكرر كثيرا في طبائعه على أمر مهم وهو «تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد" قبل «مقاومة الاستبداد»؟

متعة قراءة طبائع الاستبداد لا تتأتى وحسب من قيمة النظر الفلسفي والاجتماعي المبكر الذي قام به السيد الفراتي الذي أنهى حياته فنجان قهوة مسموم كان آخر ممارسة استبدادية عرفها المؤلف بنفسه مرة أخرى! بل بكمية التطابقات التي يمكن أن يجريها القارئ ما بين الكتاب وزمنه الحالي، خصوصا ما يتعلق فيه بآليات الاستبداد وطرق مكافحته. ولعل الكواكبي الذي هرب من حلب السورية إلى القاهرة، للمفارقة، كان سيهرب الآن، بالآليات ذاتها والأسباب ذاتها، هذا إن استطاع الهرب، بطبيعة الحال!

هكذا سنصدق كل جملة قالها الكواكبي حتى التي تواضع فيها معبراً عن سماحة نفسه واحترامه للغير: ما أنا إلا فاتح باب صغير من أسوار.

عن مجلة المجلة

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التدقيق اللغوي
محمد حنون

منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

الرائد الأول
عبد الرحمن الكواكبي